

رؤى المدينة المقدسة

رؤى المدينة المقدسة

أميمة صبحي

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ. د. أحمد شوقي

أ. د. خالد فهمي

أ. د. فتح الله الشيخ

أ. د. فيصل يونس

أ. د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: سارة عابدين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٥٠٥٢ / ٢٠١٨

I. S. B. N 978 - 977 - 490 - 529 - 2

رؤى المدينة المقدسة

قصص

أميمة صبحي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

صبحى، أميمة

رؤى المدينة المقدسة: قصص / أميمة صبحى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٢ ٥٢٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٥٠٥٢ / ٢٠١٨

إلى عبد الله، مع حبي

وجلس آخرون في عزلة على تل بعيد
يتطارحون أفكاراً أسمى وآراءً أعمق
عن العناية الإلهية والعلم الأزلي والإرادة والقدر
القدر الذي لا يحول والإرادة الحرة والعلم الأزلي المطلق
فلم يهتدوا إلى شيء بل ضربوا في الشعاب، فضلوا وما اهتمدوا.

جون ميلتون

الفردوس المفقود

الكتاب الثاني - الأبيات (557 - 561)

المحتويات

- 11 الطرق الفرعية الأخيرة -
- 21 كيف الذهاب يا زيزي -
- 31 ما وراء الشجر -
- 39 الدفتر الأزرق -
- 49 إله السينما الصيفية -
- 59 ماذا حدث منذ قليل؟ -
- 77 موسيقى الممر الخلفي -
- 89 حجرة السيدة "س" -
- 97 الأمانة -
- 107 الطاووس -
- 117 الرأس الذي كُشِفَ غطاؤه -
- 129 حصاد السافانا -
- 147 آخر أيام الخطيئة -

الطرق الفرعية الأخيرة

لم تبدِ نجلاء رغبتها في قيادة السيارة أبدًا، لذلك اندهش رمزي حين أصرت أن تقود.

كان الوقت مبكرًا. ارتدت بنطلونًا جينزًا مريحًا وبلوزة قطنية واسعة، وبحثت عن حذاءها الرياضي المنسي. وفي حركة سريعة، قبل أن يمد يده للمفتاح، احتضنته وقبلته قبلة ساخنة طويلة، ثم سحبت مفتاح السيارة وأعلنت بدلال أنها ستقود هذه المرة. قائلة: "ثق بي، لن أهشم عظامك اليوم".

كان يعرف أن قبلتها غير حقيقية. قبلة ساخنة مدروسة بحرفية. فالقبلات الحقيقية مرتجلة، لكن قبلتها واعية. دسّت لسانها بين أسنانه في عجلة ولوّت شفته السفلى. يكاد يجزم أنها لم تكن مُغمضة العينين. شعر بها تراقبه وتقيس مشاعره بقدر المسافة الصغيرة بين جفنيه.

"لن نستخدم المصعد"، قالتها نجلاء بحيوية وسحبته من يده تجاه الدَرَج. نزلت أمامه قافزة الدرجات برشاقة كأنها فتاة صغيرة. غير مبالية

بالالتهاب الغضروفي أو خشونة مفصل ركبتها اليسرى. كانا في بداية العقد الخامس من عمريهما. لكنها ما زالت جميلة، ذات جسد مشدود، فارح، مناسب لعارضة الأزياء التي كانتها طوال حياتها.

منذ أيام، كانت عارية تماماً في سريرها. تمطعت فوق فراشها بقوة، وكأنها تشد أوتار جسدها، ثم نهضت متكاسلة. كان الوقت متأخراً، خيوط من الفضة تتسلل من نافذتها الطويلة وتنعكس على المرأة أمام السرير. وقفت تتأمل البطن المشدود بإرهاق، والردف العالي الصغير. كانت الخطوط البيضاء الرفيعة تشق طريقها عليه، وخطوط السنوات أيضاً. نُقِلَ وجهها بين يديها لتشاهده من كل زواياه. الأخاديد الصغيرة أسفل الجفون وفي زاوية فمها تناسب سنواتها الكثيرة. استقرت قليلاً إلى زاوية جانبية، ونظرت متأملة وجهها. وجه طويل بوجنتين عاليتين، وعينين صغيرتين كهرة، وشففتين كبيرتين قليلاً لكنهما ممتلئتان وجميلتان.

لم يتبادلا حرفاً في السيارة. وهو منتبه لها بالكامل، أو للطريق. يحمل قدراً من وسامة تزداد بزيادة سنواته، ووجه تشوبه سُمرة خفيفة. ما إن انتهيا من زحام المدينة وبدأ الطريق يتضح أمامهما، سألته عن عارضته الجديدة. نظر رمزي إلى الجهة الأخرى، أنزل وجهه أمام امرأة السيارة الجانبية وعدل من وضع خصلات شعره الرمادية الناعمة. لم يحب على الفور. كان يتجنب إثارة الموضوع لأيام مضت، وأراحته هي بعدم سؤالها. لكن بعد

قُبِلَتْها المصطنعة تلك عرف أن صمتها لن يدوم.

قال باقتضاب إنه اختبر أخرى، لكنه لم يَخْتَرها بعد لتكون العارضة الرئيسية في مجموعته القادمة. صممت ثانية. كل منهما يحاول ألا يثير العاصفة الموسمية، التي تهب كلما أوشك على إطلاق مجموعة أزياء جديدة. لكن كان عليه الاعتراف بينه وبين نفسه أن هذا الموسم هو الأهدأ منذ أن أبدى رغبته في استبدالها بعارضة رئيسية أخرى أصغر سنًا.

كانت تقود بسلاسة. الطريق واسعة وخالية إلا من بضع سيارات تختفي خلفها في مرآتها الأمامية. وبرك مياه تلمع على الإسفلت في الأفق، لكنها لا تبلغها أبدًا. فوق المقود أمامها، أعلى البوق، مُلصق مصغّر للوحة "زهرات الصباح الذهبية". صغّر لها خصوصًا لها صديقها الرسام. لصقتها قبل تحركها لتكون أيقونتها أثناء القيادة.

لوحة يمكنها توسُّط جدران ردهة كبيرة بمفردها، تعود لمنتصف القرن التاسع عشر. في مركزها سيدة جميلة، تشبهها حد التطابق. تجلس في غنج رافعة يديها قبالة وجنتيها، وشعرها مرفوع لأعلى، بجانبها زهرات تغمرها أشعة شمس جانبية. ورغم أن السيدة هي قلب اللوحة، لكن الرسام تجاهلها وأعطى اسمها للوردات.

تتبع نجلاء السيدة الموديل في أكثر من لوحة لنفس الرسام. عرفت أنها كانت عشيقته. منحته روحها ليرسمها فوق كل شيء. قيل إنها من

أكثر السيدات اللواتي رُسمن. ثم انصرف عنها ليرسم غيرها بعد رواج لوحاته.

لكنها لم تستطع تتبع كل شيء، لم تعرف مثلاً عن نزهتهما الأخيرة في ذلك الصباح البعيد، قبل امتزاج الذهبي بالفضي. حين نهضت كريستينا، السيدة الموديل، من سريرها. كانت مدللة كسولاً. ابنة لأحد نبلاء ذلك العصر. عارية تماماً، سارت في ردهة منزلها الصغير، حيث كان ألبير، الرسام، نائماً فوق الأريكة في نهاية الردهة العريضة، مفرصاً من شدة البرد. تفحصته كريستينا، نظرت إلى خصلات شعره الرمادية الناعمة، إلى ركبتيه المربعيتين البارزتين. لم تسحب الغطاء فوقه، إنما رقدت هي بجسدها الدافئ بجانبه، واحتضنته بقوة لتدفئه. نأما كما لو أنه آخر يوم لهما على هذه الأريكة، في ذلك المنزل، في تلك الحياة.

حين استيقظا، ملأت هي حوض الاستحمام الصغير الأنيق وغمرت جسدها به. حاول ألبير دحكهها بالصابون، لكنها رفضت بهدوء، وطلبت منه ارتداء ملابس للخرج.

ساراً معاً على مهل، يتأبط ألبير ذراع كريستينا، ووهن ما أصاب جسده العجوز. لم يكن معها سوى حقيبتها الصغيرة وذراعه. طويلة، فارعة الطول، تكاد تلامس الشجيرات الصغيرة. أخبرته أنها تود التجوّل في الغابة. تعجّب لأنها لطالما خشيت الدخول إليها، لكنها طمأنته أنها لن يكونا طعاماً للذئاب اليوم.

لكن نجلاء قرأت عن لقاءهما الأول، عندما كان ألبير مشردًا على النواصي، يبضع لوحات متسخة بيده يعرضها للبيع أمام المارة. وكانت كريستينا أحدهم في ظهيرة هادئة، فوقفت لتنظر. دفعت له بعض النقود مقابل لوحة صغيرة، وقبل أن تمضي في طريقها، قال لها ألبير إنه يود أن يرسمها دون مقابل. لم تتردد وسألته متى، أجاب: الآن. فذهبا معًا إلى منزلها الصغير ولم يفترقا بعدها.

تضم الموسوعات اسمه، ألبير بوديل، أحد رسامي القرن التاسع عشر، مع صورة مُصَغَّرة له. لم يُصوَّر سوى مرتين فقط في حياته، حيث رفض الجلوس أمام تلك الآلة العجيبة. ورفض تصوير كريستينا نهائيًا، وهددها بحرق اللوحات التي رسمها لها أمام الجميع، فتراجعت عن التجربة.

عرفت نجلاء أنها لم ينجبا أي طفل، كما عرفت أن ميوله الجنسية تغيرت، لكنها كما الباحثين لم تعرف متى. ألبير نفسه لم يعرف متى انتهى جاك، بُستاني حديقة كريستينا. كان قصيرًا ومفتول العضلات، راقبه ألبير وهو يجزّ العشب من حديقته الصغيرة، يعمل في سرعة ويباعد ما بين فخذه مقررصًا فوق الأرض الخضراء. باغته ألبير دون كلام، اعتلاه وانتهى. لم يمانع جاك، ثبت ثم ارتدى بنطلونه، وأكمل عمله بسرعة كالمعتاد.

- هيا نرسم شيئًا جديدًا.

بدأ ألبير اقتراحه هكذا:

- هيا يا كريستينا، تشجعي واطركي مساحة من اللوحة لكائن حي آخر يشاركك بها.

لم تفهم كريستينا في البداية، رمقته ومضت في طريقها. لكنه لم يتأخر في التنفيذ، أحضر فتى صغيراً وأمر الخدم بتنظيفه وألبسه أحد قمصانه. أجلسه بجوارها كأنها حبيبان يروّجان لإشاعة ما، يمضغان علكة القيل والقال. كان ألبير يعمل في سرعة، لأنه أدرك من نظرات كريستينا النارية أن الأمر لن ينجح إذا تباطأ.

لكن كريستينا لم تمنحه الوقت الكافي، إذ صفعت الفتى بقوة عندما لمحتة يتحسس عضوه ويغمز لـ ألبير، وطردهما من منزلها. عاد ألبير بالطبع بعد عدة أيام، لكنه رجع بشروط. "سأرسم ما ومن يحلولي"، قالها بحسم الرجال، ليس لديه أي سلطة سوى أنه رجل. وانصاعت كريستينا كرهاً.

أمضت أيامها تراقبه من أعلى السلم الداخلي، وهو يرسم الفتيان الذين يحضرهم من الشارع للمنزل، لمنزلها. يرسمهم بترؤ ويطيل النظر إليهم. يُخلد هؤلاء الحمقى كما لو أنه يسخر من تخليدها هي شخصياً. كل صباح ينهمك ألبير في اغتسال طويل، يتأكد من نعومة ذقنه أمام مرآته. تتأمله أثناء استعراضه لفحولته، وتزداد شكوكها حول انتهائه منها للأبد. ورغم ذلك، أصبحت طقوسه اليومية جزءاً من حياتها، كأنه شاشة سينما وهي المشاهدة القديمة الوفية التي التصقت بالمقعد، ولم تعد قادرة على المغادرة.

سنوات مضت ولا تزال، وخطوط الزمن ترحف على لوحاتها بالمرسم

قبل زحفها على ملامحها. كان يبيع لوحاته الجديدة، خصوصاً الموديل العاري. رفضت هي التعرّي في زمن آخر، قالت إنها ليست رخيصة. الآن تسير في المنزل عارية، وأصبح من المألوف أن تُرى دون ملابس في الردهة أو في النافذة. يمكنها سماع أصوات ضيوف ألبير المتهاكّمة خلفها، لكنها لم تكثرث. كانت تعرف أن ألبير يمنع أيهم من التعرّض لها، وأن وجوده حماية لها من تهكمات أخرى أكبر وأكثر إحراجاً. في أعماقها، أَلقت اللوم على نفسها، كما سيفعل الجميع. تقبّلت الألم بصدرها وأفسحت له الزمن.

لم يذكر التاريخ كل ذلك. لم يتوقف أمام آلام كريستينا وجموح ألبير. حين تتبععت نجلاء حياتهما لم تتوصل للكثير، لكنها كانت تعرف بطريقة ما ما مر به ومر بهما. كانت تشعر بأنها مركز تلك الدائرة الضيقة على اتساعها. وأن لديها هنا مساحة خاصة بها لم تختفِ باختفاء كريستينا وألبير. حيث تلاشي معاً دون أثر، ولم يبقَ منهما سوى اللوحات التي حملت سعادتها بورشة عمل ألبير. لا يعرف أحد كيف أو أين تم الأمر، كما قرأت نجلاء جملة وحيدة مقتضبة في نهاية التحقيقات عنها، "قتلته وانتحرت". خططت للأمر جيداً وأخفت الجثتين في مأمن، ونجحت في إقصاء شذوذه عن جريمتهما.

في الغابة، وعلى الطريق، أغلقت كل منهما الدائرة. اصطحبت الزوجتان ألبير ورمزي في نزهة أخيرة، ثم اتخذتا طريقين فرعيتين. سمعتا سؤالهما الأخير "إلى أين؟"، وقالتا بصوت هامس:

- سترى.

كيف الذهاب يا زيزي

بالأمس ماتت زيزي.

صنعت لي قالب الكيك الذي أحبه وقالت أنا زوجتك ولست خادمتك لتطلب الكيك بهذه الطريقة السخيفة، ثم دخلت في سريرها. في الحقيقة، أنا لم أطلب الكيك بطريقة صعبة، لم أطلبه من الأساس، لكنها عانت من بعض الهلوسات في أيامها الأخيرة. تناولت الكيك في الصباح، وصحت هي لتصب لنا الشاي باللبن وتزينه بنعناع جاف مفروك بعناية فوق الكوب. ذات مرة أخطأت ووضعت ملوخية جافة بدلاً من النعناع. شربت الشاي باللبن حينها ولم أعترض، لكنني أعرف أنها كانت غلطة مقصودة لتقيس ردّ فعلي وتحللها ثم تتشاجر.

لا أعرف كيف ماتت زيزي تحديداً، لقد خرجت أنزّه كلبها الصغير "جومى"، كما أفعل في كل صباح. كان واقفاً أمامي وذيله يقظ يتحرك بنشاط خلفه، فأنهيت فطوري سريعاً قبل أن يبدأ وصلة النباح، وخرجنا معاً. حين عدنا لم تكن في الردهة، ظننت أنها في المطبخ مشتبكة مع طعام

ماء، لكن بعد قليل اكتشفتُ أنها ليست هناك كذلك. وعندما نبج جومي كانت هي -على الأرجح- ميتة في الشرفة الداخلية في حجرة نومنا، ويدها حزم البصل التي كانت تحفظها على الجدران.

بالطبع لم يكن اسمها زيزي، لكنني لن أسجل اسمها لأنها لم تحبه أبداً، ولا جدوى من محاولة التخمين، لأنها لم تكن زينب ولا زينات ولا حتى زكية. وعلى شاهد قبرها صممتُ على كتابة زيزي، اعترض أخوها بأن عليها أن تقابل الله باسم يليق بسيدة تقية. لكنني لم أراجع، صلبتُ ملاحني دون كلام، فانتهى النقاش على الفور.

لم أجد جومي في المنزل عند عودتي، بحثتُ عنه قليلاً ثم انسحبت في نوم عميق فوق الكرسي الضخم في الردهة. جاءت زيزي كأنها ليس للموت وجود في عالمها، ألقت الغطاء فوق جسدي غاضبة. أكاد أسمعها بوضوح وهي تغغم عن أن الكرسي ليس مكاناً مناسباً للنوم، وعن موجات البرد الحاد التي تزيد حين أنام في مكان بارد. لم أرد، كما أفعل في كل مرة، تجنباً لسخطها.

حين صحوْتُ ليلاً، كان الظلام ثقيلاً منسدلاً، وخيوط الضوء متوازية على الأرض عبر الشرفة. كانت زيزي تغني في المطبخ أغانيها الفرحة، تمط اللحن فتفسده وتنشز بصوت رفيع. ربتُ على رأس جومي برفق ثم رفته بقوة ليصرخ فتأتي مسرعة لتطمئن عليه. لكنها لم تحضر، ظلت تغني أغاني غير مناسبة لليل ثقيل مثل ذلك.

حين ماتت، تركتها على الأرض وشغلتُ الهاتف لعدة دقائق لأعلن رحيلها، لكن حين عدت كانت قد عادت للفراش ووضعت الأغطية فوق وجهها الطويل، كان أنفها أكثر شحوبًا عن ذي قبل، كورقة شجرة جافة على وشك السقوط. لم تتوقف عن ألاعيبها قط حتى في العالم الآخر.

في الصباح، كنت ما زلت على الكرسي الضخم، وكانت قدماي ممدودتين أمامي خارجه، لأنه أقصر من طول ساقيّ بعدة بوصات. كان ظهري مشدودًا، أكاد أمزق مفاصلي القديمة. متلحفًا بسترقي الجلدية الزرقاء، جلستُ أنتظر. دخلت زيزي من الباب بصحبة جومي ويدها طعام كلاب جاف. تذكرت أني نسيت شراءه في آخر مرة كنت بالخارج. لم أتكلم أو أعذر، ولم تعقب هي كذلك. لكنها لم تقدم لي الغداء، بينما سمعت أنفاس الكلب فوق صحنه، أنفاس دافئة ولعق مستمر.

هدأت قليلًا وصممت على تجاهلها. لن تخدعيني بحيلك هذه يا زيزي. تداعى إلى ذهني حيلتها الأولى حين رأيته لأول مرة. كانت منتصبه كركبة صغيرة فوق سلم خشبي يصلها بسطح منزلهم. تستعد لترفع قدمها اليسرى فوق السطح بينما كانت اليمنى ما تزال فوق آخر السلم. كانت ترتدي جونلة طويلة لكنني لم أر ما أسفلها أبدًا. مالت برأسها تجاهي ورأيتني، كان شعرها طويلًا وراءها ومربوطًا بعناية، طويلًا حتى أنه تدلَّى ليصل إليّ بالأسفل، طويلًا حتى أني رغبت في تسلقه لأكون بجوارها.

لكنني حين قابلتها مرة أخرى كان شعرها قصيراً، سألتها عما رأيته فقالت: "كان بجانبني حصان، هذا شعره". صمتُ حينها ولم أُعلّق. بطريقة ما أعجبني الرد، تخيلت نفسي أتسلق ذيل حصان، فيرفسني ولا أقع؛ يرفسني ثانية، فنمتطيه معاً وأرثدفها وذراعاي حول بطنها المكور الصغير.

بهتت هذه الصورة بعد سنوات، وبقي شعور بالبله يصيبني كلما تذكرت. حين واجهتها أخيراً بتلك الحكاية قالت إنها لا تعلم شيئاً عما أحكي، وإنهم لم يملكو سلمًا خشبياً يوماً في منزل أبيها. وهكذا كانت كل المناقشات تنتهي إلى لا شيء. أحدثها عن حصان فوق السطح واقفاً بجانبها فتتكر وجود سلم خشبي. يمكن أن يكون معدنياً يا زيزي، يمكن أن يكون حجرياً يا حبيبتني، يمكن أن يكون أي شيء، لكنها قصة عن شعر الحصان الطويل وليس عن كل شيء آخر.

كانت تسعل بقوة قبل رحيلها، كأن الصدرَ يتهياً لطرد الروح. مزجتُ العسل بالليمون وقدمته لها بالفراش، فقطرته بعينيهما وقالت إن هكذا أفضل، فالعسل ينظف العين والليمون يزيد من اتساعها. الغريب أنها توقفت عن السعال بعدها. حين ماتت أدركت أن حواسها كانت قد انفتحت على بعضها، لأنني رأيته خلسة تضع حبة لوبيا صغيرة بأنفها. الآن فهمت كل شيء.

في الشارع، سرت بجانب محال بيع الكنفاء التي كانت تطرز لها أحياناً.

أخبرتني قديماً بأن لوحاتها تُباع على نحو جيد. لكنني وجدت لوحاتها المطرزة على الأرفف بصناديق العرض. يا لك من مسكينة يا زيزي! أمضيت سنواتك تطرزين بألوان غير متناسقة لوحات الكنفاء المملة السخيفة، وتأملين أن ترى جدران سيدة سعيدة ولديها خادم يدهن قدميها بالفازلين كل مساء، فتنام وعيناها نصف مفتوحتين على لوحتك المعلقة على الجدار المقابل لفراشها.

ابتعت كل لوحاتها، ملأت بها الأريكة وسهرت ليلة كاملة أجردها من الأطر الذهبية العريضة. ثم راكمت الأقمشة المطرزة فوق بعضها بعناية، وطويت كل مجموعة على حدة، ثم ثبّتها بخيوط سمكة. في المقابر، رشوت الحارس ليتجاهلني. أمضيت أياماً أذهب في الصباح وأعود إلى المنزل في المساء.

هناك كنت أحفر بإزميل صغير فتحة صغيرة أعلى شاهد قبرها. كان الشاهد كنافذة صغيرة مسدودة تماماً بجانب رأسها. لقد أمرت أن تدفن هكذا، قدماها بالداخل ورأسها باتجاهنا، لعلها تحب الإنصات لمن يزورها، أو ربما ترغب في شم الورود التي يعلقونها فوق الشاهد تحية لها وترحماً.

نجحت في صنع فتحة صغيرة رفيعة بأعلى حرف الزين من اسمها، وحتى الياء المنقوطة. انظرت قليلاً حتى يتجدد الهواء بالداخل وحتى يتسلل النور، ثم أسقطت أول لفافة من الأقمشة. فكرت أن أصنع فتحة أخرى أسفل الشاهد، ربما تود الرد عليّ من خلالها. لكنني تراجع وتعدت للبيت.

فوق الكرسي الضخم، وجدت لوحة مؤطرة بإطار خشبي رفيع. كانت إحدى اللوحات التي ألقيت لك بها. كانت لفتاة ترقص. راقصة يا زيزي؟! لا أتعجب لأخيك حين قال لا بد أن تقابلي الله باسم سيدة تقية. أنت لم ترقصي قط في حياتك، كنت تفضلين الغناء. اخترتِ دومًا أن تكوني المحرك الرئيسي لكل شيء، والغناء هو ما يتحكم بأجساد الراقصات. الآن رضختِ وأصبحتِ ترقصين يا زيزي.

استمر تبادل الرسائل بيننا نهارًا، ألقيت لها بلوحاتها وإبرة الكنفاء الطويلة وخيوط ملونة كثيرة، وخواتمها الفضية وطبق جومي، الذي لا أذكر إن كانت أمرت بدفنه معها أم لا. وفي الليل، كانت ترد على رسائي، تحرق لمبات المنزل الواحدة تلو الأخرى، تُفجّر الصنابير فوق الأحواض وتُغرق السجاجيد، تفتح بابي للقسط وتغلق الشبابيك. تشاكسني كعادتها، وإن كنت أصبحت متأكدًا من أن للموتى مزاحًا ثقيل الظل ومزاجًا كئيبيًا.

فوق الكرسي الضخم، أمام باب البيت، أتلحف بالسترة الجلدية الزرقاء، وجومي يلحق قدمي الناتئة. كانت زيزي تطوي الغسيل، تمسك قطعة الملابس وتطويها بعناية على حسب درجة حبها لها. يمكنني أن أرى مدى رضاها عما أرتديه من كيفية طيّه، ومن الخطوط العشوائية المكرمشة فوقه ومن الطيات المتعرجة. كانت ترفض استخدام المكواة، فلا يكون أمامي إلا الامتناع عن ارتداء ما لا تحبه.

لكنها في هذه المرة كانت تلقي ما لم تستسغه في حفرة ما بجانب قدميها،
يخرج منها ألسنة نار طويلة ودخان أسود. سألتها عما تفعله، قالت إنها
غسالة جديدة تعمل بالطاقة الشمسية. صمتُ مرة أخرى وشعر حصانها
المدعى يتطاير خلف رأسها العجوز.

في اليوم الأخير، ذهبت لقبرها ومعها دفترها الصغير، مدونًا به أسعار
خيوطها الملونة وأسعار طعام جومي الجاف وأسعار خدع أخرى كثيرة لا
أحد غيرها يستطيع فك طلاسمها. مسكتُ الدفتر ووضعت به حرص داخل
الفتحة. كانت الفتحة رفيعة للغاية، بالكاد ضمت دفتي الدفتر. لم أفلته،
إنما ظلت أصابعي متشبثة بطرفه من العالم الآخر. همستُ لها:

- خديني يا زيزي.

لكنها لم ترد، امتنعت منذ موتها عن الرد.

هل تومئين برأسك يا زيزي؟ أعرف أنك تقولين لا. لكنك لم تعودتي
في موضع اختيار. لقد فزت أنا بالجولة الأخيرة يا زيزي، وضيعت أشياءك
أسفل الكرسي الضخم وأغلقت أذنيّ دون غنائك السيئ، والتهمت غداء
جومي الجاف في الليالي الرطبة المحملة بالعرق والتراب.

وحين تأتين مرة أخرى، يا غبية، احضري معك ورقة رُسم عليها،
بخطوط كبيرة لأراها، طريق الذهاب. إن كنتِ لن تتحدثي لي ثانية فاكتمي،
اكتمي بخط النسخ حتى أفهم. فمثلك لم يخلق ليكتب بالرقعة يا زيزي.

ما وراء الشجر

خلف شجرة عملاقة، وقف متوارين، والحقيبة ما زالت على ظهره.
كانت شجرة استوائية وارقة، لم يعرفا اسمها وحين سألا، أجابهما رجل
محلي بكلمات لم يستطيعا تذكرها أكثر من التفاتهما ناحيتها.

الشمس واضحة هنا، تبدو أقرب وأكثر سطوعا من أي مكان آخر قاما
بزيارته في بلدهما. ومع ذلك يمكنهما النظر إليها دون عناء. ثبتت نظرها
عليها وأمعنت النظر، للحظة ظنت أنها انطبعت داخل مقلتيها ولم يعد في
وسعها رؤية شيء إلا من خلالها.

هز كتفها ببطء وهو يحثها على التحرك. المكان مفتوح، يطل على كل
شيء. شمس وشجر وهواء وبحر. لم تتدخل يد بشرية حتى ببناء حجري
هنا أو هناك.

بالأمس لم يكثر ثا لبعض السحب التي تربصت بهما. تصورا أنها قد
يعودان كما ذهباً، بملابس جافة وشعر مثبت وأحذية نظيفة. أكثر ما حرصا

عليه هو عبوة رذاذ يصد البعوض ويبقيه بعيداً. أغلب من بالقارب كانوا مسلحين بحقيبة كبيرة محشوة بمناشف في قعرها ومناشف في الطبقة الوسطى منها والمزيد من المناشف بالأعلى لحماية ما بأسفلها.

شعرا بقلق حين انتبها إلى أنها لم يكترا لهذه الاحتياطات. لكنهما في الصباح كانا قد تضاجعا مرة، وبعد الاستحمام تضاجعا مرة أخرى بحميمية أكثر، وتأخرا على ميعاد رحلتها. فسحبا الأحذية والقبعات وانطلقا مريحين.

وفي الطريق، كانت تأوهاتا لا تزال تتردد في أذنيه، وتثيره. اختار أن يجلسا في مؤخرة عربة صغيرة لا تحمل إلا سبعة ركاب، حتى يستطيع تقبيلها وقتما يريد. احتضنها بهدوء، كأنها انزلقت يده دون قصد منه على ظهرها. ثم تسلل لثديها من تحت إبطها، نغزها نغزة فابتسمت دون حراك، اقترب ليقبلها كما خطط تماما، حين رأت نظرة السائق لهما في المرآة، صدته وأزاحت يده بسرعة. ضحك السائق وقال بإنجليزية هزيلة:

- honeymooners.. Ha?

ضحكا وأوما هو برأسه سعيداً. غمز السائق بعينه بينما يتابع الطريق المترب الحلزوني بخبرة مخنكة:

- No honeymoon in bus.. No honeymoon in street

التفت إليهما كل من بالعربة، دفست هي رأسها في الزجاج بخجل بينما

أراح هو ظهره للوراء في استرخاء، فarda ذراعيه وغمز له بعينه. أصبحت كلماته قافية يلوكونها طوال اليوم كلما أرادا خطف لمسة أو احتكاك، تقلده هي تماما بإنجليزيتة العرجاء وتغمز.

قبل الوصول إلى القارب، على رصيف الميناء الصغير، كان المحليون هادئين، بينما ينظر أصحاب الجنسيات الأخرى حولهم ويتبادلون النظر للسماء. لا تسعفهم لغاتهم المختلفة في التواصل. تضخمت السحب فوقهم وغمق لونها. أصبح الأفق دخانياً لا يرون من خلاله حدود البحر من السماء.

على جانب المرفأ، وقف بعض الشباب المحلي ينطلونات قصيرة كالحة وقبعات صغيرة من القش يسخرون من قلقهم. ضحكوا قليلا ويبدو أنهم أطلقوا النكات. لم يصمتوا إلا حين تحدث أحد البحارة إليهم.

أسندت ظهرها على حجر ضخمة، ونفخت دخان سيجارتها صانعة سحبا خاصة بهما. غابت قليلا، كان المشهد مكررا معيشا من قبل، هو وهي والأمواج تتكسر على أذنيها ودخان أرمَد الصورة في عقلها، فبهتت واختفت.

- كما لو كنا هنا من قبل!

ركب القارب مع المجموعة، تواريا عن الأعين في المقدمة، بعيدا عن

المحرك والبحارة. لكنها لم تسمح له بالاقتراب، وكررت جملة السائق وضحكا.

لم تمطر يومها، تبدد كل القلق على وجوه السائحين في رحلة العودة. وفازا هما باللامبالاة التي حرصا عليها طوال الوقت. كانا محط أنظار الجميع منذ بداية اليوم، تجاهلتهما للنظرات وتحاشي الكلام جعل منهما نجمين مفضلين للبعض.

في الصباح، كانا يستعدان للرحلة الجديدة، جزيرة أيضًا. قالت إنها ستحشو حقيبتها بالمناشف كذلك، ويكفي أنها تجاهلت القلق بالأمس. لم يعلق، كان يرغب في الالتحام بها قبل النزول، لكنها قضت الوقت بأكمله في الإعداد للرحلة.

نزلا لردهة الفندق، كان الجميع بلا حقايب، أخف وزنا وقلقا. تبادلوا حمل الحقيبة والعرق يسيل على ظهريهما من قيظ النهار. لم يمنعهما حملها من تبادل النكات ولوك جملة السائق الخالدة.

الشمس دانية، يمكنها قطف أشعتها الذهبية بأطراف أصابعها. تكاد تلامس أنفها الطويل الأرستقراطي، سحبت قبعته للأمام قليلا، ما اضطرها إلى رفع رأسها لترى الطريق.

في القارب، لم يستطيعا التسلل للمقدمة لحجم الحقيبة الكبير. حمولة

زائدة، حرمة من الحب صباحا والآن تحدد تحركاتها وتلامسهما. نظر إليها وأرفل جسده الفارع بمفرده للمقدمة.

رسا القارب على الشاطئ وهما صامتان والحقيبة بينهما. أرادا تغيير ملابسهما ليرتديا ملابس البحر، قيل لهما إن لا مكان مغلق لتبديل الملابس هنا. مشطا المكان بأعينهما بحثا عن شجرة ضخمة ليتواريا وراءها.

كانت المجموعة بلباس البحر بالفعل ما عداهما. توجهتا للشجرة يجران الحقيبة التي أصبحت مزعجة جدًا عند هذه اللحظة. هناك خلف الشجرة العملاقة، وقف متوارين، والحقيبة على ظهره. شجرة استوائية وارفة، لم يعرفا اسمها. خلع كل منهما ملابس ليرتدي لباس البحر، لكنهما لم يقاوما، وفي ظل الشجرة تضاجعا.

كانت الحقيبة على بعد أمتار من الشجرة، حين نظرت إليها لتقدر المسافة التي عليها أن تسيرها عارية لتجلب ملابسها، رأت قماشها مرقطًا. فزعت في البداية ظنا أن حيوانا صغيرا نائم فوقها، لكن حين أمعنت النظر وجدت إنها الحقيبة الداهية وأن البقع تزداد بوتيرة أسرع. حتى أصبحت كلها بقعة واحدة، مبللة بالكامل.

بدأت الأصوات تتضح أكثر، كُشف عنهما الغطاء الذي تمددوا أسفلها حتى الثمالة. فسمعا صوت الماء يطرق الأرض بقوة بالقرب منهما، لكنها

لم تصل إليهما بعد. كان ممدداً فوقها، لا يزال يلحق طرف أذنها لكنه رفع رأسه قليلاً حين رأى الحقيقة. ثم نهض متباطئاً في محاولة للاستيعاب. بيده ورقة وارفة يغطي بها عضواً منتصباً، وهي وراءه مخبأة عضوها ونهديها، رمقا المجموعة تجري في كل مكان في محاولة للاختباء.

كان سيلاً منهمراً أغرق الجميع. حتى إنها اضطربت، لم تعد تعرف من أين يأتي الماء تحديداً، أمن الأرض أم من السماء أم إنه رذاذ الأمواج التي علت كهضاب صغيرة؟ الألوان باهتة طارت مع الرياح، والأشجار مالت عكس اتجاه البحر. لم تمطر تحت الشجرة، لم يصبها أي بلل، لكن المناشف داخل الحقيبة غرقت تماماً. جرفها السيل في اتجاه لم يستطيعا تحديده، خلفه وراءها شعوراً طاغياً بالسلام الداخلي لفقدانها.

عاريان، سألاً مرة أخرى أحد المحليين عن اسم الشجرة، تفوه بإنجليزية متكسرة:

- شجرة الحب.

الدفترا الأزرق

- لا تقلق، الرجل لديه مشكلة وسنحلها.

قالها حامد لمجدي في وسط الزحام، وهو يضع كوب شاي على الأوراق أمامه. كان الشاي باردًا قليلًا وأخف مما قد يعدل مزاجه، إلا أنه كان نفحة صباحية لا بأس بها في يوم مضطرب كهذا.

كانت طاقة مجدي منسحبة بالكامل، لا يعرف كيف يواجه هذه المشكلة. يسحب الملف من اليد الممدودة من الفتحة الصغيرة بالشباك أمامه، ثم يضع الأختام والدمغات بآلية محفوظة. كان كوب الشاي بمثابة وقت مستقطع قصير، فرشف رشفة قصيرة، ثم تجرع الباقي مرة واحدة، متجاهلاً اليد الممدودة التالية وصاحبها المتعرق. حينها تذكر يد الشرطي وهو يسجل رقم سيارته هذا الصباح في دفتره. استلم الملف التالي أخيرًا وقد انتقل ذهنه للتفكير في حامد.

تشاركاهو وحامد هذا المكتب بالهيئة الحكومية معاً لسنوات، بجانبهما كرسي ثالث، لكن صاحبه متغيّب دائماً، فلم يعودا يشركان صاحبه في أي

شيء. مكتبهما في حجرة مستطيلة، يجلسان وراء شبابيك يستقبلان جمهوراً يحتاج إلى ختم أوراق بأختام النظام الرسمية. المكتب الرخامي السميك بطول الشبابيك هو مكتبهما، تراس الكراسي بمحاذاته والأوراق والدمغات والأختام والأموال على سطحه. الرخام أمام مجدي عليه بقع سوداء، والنقر الصغيرة المنتشرة فوقه تقعّرت، حتى أن مجدي يغرس قلمه الجاف في إحداها أحياناً. بينما اللمبات النيون الطويلة تتراقص فوق رأسيهما.

مضى الوقت ثقيلًا، ولم يعد مجدي يرى، من فوق كرسيه، النهار الداخل من بوابة الحجرة المربعة.

تزايدت أعداد الأيدي الممدودة بالأوراق، المنتظرة لحظة كبس الخبر الأزرق فوقها. والمروحة بجواره تدور بيأس بلا أي طراوة. بدأ ينسى الحظ السيئ الذي اجتاحه هذا الصباح، الماء المنقطع وخرطوم الماء في الحديقة الذي غسل به وجهه، والشرطي الذي دوّن رقم سيارته في دفتر أزرق لأنه ركنها في المكان الخطأ، والمثانة التي أفرغها في حمام الهيئة. ذهب عنه مرارة الاضطراب قليلاً وراء مرارة كوب الشاي الثاني الذي يطوي الوقت برشفه.

أشار حامد له بأن الوقت قد حان، فأغلقا الشباك وتركا الجماهير الغاضبة بلا اكتراث، وخرجاً مُسرّعين نحو حمام الهيئة. دس حامد لفافة صغيرة بيد مجدي وقال بسرعة إن عامل البوفيه أخبره عن مشكلة تواجه الشرطي. كانت الخطة،

أن يذهب مجدي إلى المرحاض ويغلق الباب، بعدها سيدخل الشرطي الذي لا يجب أن يشاركه أحد الحمام، لذلك يتجنب الجميع الذهاب بينما هو هناك. عامل البوفيه يعمل حارساً له، رشاه حامد ليلخص له الموقف، وأخبره بأن الشرطي في طريقه لباب الهيئة الآن.

سيدخل حامد بعد الشرطي متظاهراً أنه لا يعرف أنه بالداخل. بعدها بدقيقة سيخرج مجدي من المرحاض ومعه هذا الدهان ويعرضه عليهما ليساعدهما على التبول. أكد حامد عليه "دقيقة واحدة وتخرج، لأنه سيطر دني.. مفهوم؟"

كان اضطراب مجدي يزيد كلما اقتربا من باب الحمام. شعر بأنها ليست خطة تافهة هكذا كما يشرحها حامد، لم يكن الأمر بهذه البساطة قط. إنه شرطي ويمكنه فعل أي شيء ليؤذيها. لكنه في نفس الوقت حاول تهدئة ضربات قلبه وتذكير نفسه بأنه ليس إلا رجلاً مريضاً لا يتبول وسيتعلق في أي شيء قد يلوح له بالأمل في العلاج. فكر أن يومه على وشك البدء حالاً، وأن المشكلة انتهت وسوف يعود ليتجرع كوب شاي آخر ويتسلم الملفات من الأيادي الممدودة دون إزعاج.

دخل مجدي مسرعاً للمرحاض الداخلي وأغلق الباب وراءه. بينما وقف حامد ينتظر دخول الشرطي من بعيد. ثم تبعه بعدها بدقائق قليلة. كان الحمام خالياً إلا من الشرطي. قصير كقزم محني الظهر قليلاً، هيئته

مربعة لا تليق برأسه الصغير، وقف أمام مبولة في وضع استعداد لإفراغ مثانته، ودفتره الأزرق أسفل ذراعه اليمنى. لف برأسه قليلاً ليرى شريكه الطارئ، فلمح حامد عضلات رقبتة تشتد، وبدت الأحاديث على جانب وجهه أعمق مما تصورهما. كان ضوء الشمس المتسلل من النافذة العالية يتكسر فوق ملامحه ولا ينفذ لتجاعيده، فظهرت أعمق لوئاً. لم يكن يرى الشرطي كثيراً في رحلة ذهابه ومجيئه للعمل، لذلك لم يركز قط في هيئته. مرت نظراته في ثوانٍ قليلة لكنها كانت مجتزأة من كوابيس حامد.

رجل في الظلام في زقاق ضيق، لا يظهر منه سوى وجهه، ملامحه ساكنة كالموت، وتجاعيده سوداء متحركة كديدان صغيرة تلعقه. تسمر مكانه حتى بعد أن أعاد الشرطي رقبتة لوضعها، كان موقفاً ثقيلاً وود لو لفَّ وعاد خارجاً من الباب دون كلام، لكنه تذكر مجدي المنتظر خلف باب الحمام، فتوجه للمبولة ووقف بجانب الشرطي العجوز. لم يخرج عضوه بالكامل، فقط رأسه، ووقف متظاهراً بالانتظار مثله. طال وقوفهما دون إطلاق ما يودّان إطلاقه. وحين همَّ الشرطي بإنهاء وقفته، قال حامد بابتسامة حذرة مرتعشة "وضع سيئ، ها؟"

لم يجب الشرطي، إنما نظر إليه بجانب عينيه ثم عدل وضعه ليخبي عضوه المنكمش. كان حامد يشعر بالنظرة الجانبية منذ وقوفه بجانبه، كانت عيناه زجاجيتين، خاليتين من أي تعبيرات، خشى مبادلتها النظر كيلا يتحوّل إلى

رماد ويتطاير. لم يظهر مجدي ولم يسمع له حامد أي صوت وراء الباب المغلق، وغرق في عرقه ولم يعد يعرف ماذا يفعل بعضو بين يديه.

أما مجدي فجمد وقفته خلف الباب المغلق وتعرق يده بغزارة. كان مرحاضاً صغيراً، منفذه عالٍ يعلوه طبقات من الأتربة، به لمبة صفراء يتلاعب ضوءها بخياله على الحائط، تقترب قاعدة المراض من بابه لدرجة لا تسمح لمجدي أن يقف بمواجهة عنكبوت متحفز فوق الباب. كان عنكبوتاً ضخماً، أكبر من أي حشرة رآها مجدي يوماً، برأس صغير، وكذلك ما بدا له أنهما يدها، أما أقدامه الخلفية فطويلة بشكل لافت. ورغم تشوّهه الواضح لكنه استطاع غزل منزل رحب به صيد يكفيه لأيام، في الزاوية وراء الباب.

مرت الدقائق ثقيلة وصار الأمر أكثر إرباكاً لحامد الواقف بجانب الشرطي، كان الخوف يعتصره تماماً حتى أنه تقطّر عرقاً. فكر أن يعتذر ويمضي من أمام المبوللة. كل ما استطاع معرفته عن الشرطي يدل على أنه رجل سريع الغضب، يمارس الإيذاء أسرع وأسهل من تبوله. وحين لم يظهر مجدي، بدأ يشعر بأنه في خطر، وأنه لن يأمن جانب الشرطي بعد الآن، كل أملته يتلخص في ظهور الدهان وخروج مجدي من وراء الباب.

بنظرة خاطفة رأى أن الألم قد اعتلى وجه الشرطي تماماً. لم يبدُ مكترثاً لوجوده، ممسكاً بعضوه من أعلى كأنه ينضح ماءً على حديقه، ويحاول

إعطاء الأوامر لجسده ليستجيب له ويخلصه من الانتظار الموحش. قرر حامد الانسحاب بهدوء تاركاً إياه مع تأمله الطويل. طرأت له فكرة أن يطرق الباب على مجدي، لكنه تراجع كيلا تنكشف الخطة. وفي ذهنه يؤكد لنفسه أن الشرطي لم ينظر إليه ملياً ولم يوجه نظره له بشكل كامل، بالطبع لن يمكنه التعرف إليه إذا مر أمامه غداً.

عاد حامد لمكتبه وطال تفكيره في المسألة وهو يستقبل الأوراق من الأيدي الممدودة، بينما ينظر لكرسي مجدي الخالي في قلق. لكنه لم يجرؤ على العودة للحمام مرة أخرى.

ظل مجدي بصحبة العنكبوت وراء الباب، يشغل ذهنه بخيالات استثناسه وتدريبه على صيد الدفتر الأزرق ضمن شباكه، ثم التهامه وتخليصه من دين المخالفة الذي لن يقدر عليه. كان العنكبوت يبادل له النظر، يرى بأعينه الكثيرة انفعالات مختلفة فوق وجه مجدي، ويحاول قراءة رجفته واصفرار وجهه، كما كان في إمكانه عدّ ضربات قلبه السريعة. كانت رائحة الأدرينالين تملأ المكان وتعبق أنف العنكبوت.

تراجع مجدي للخلف قليلاً ببطء شديد. في تلك اللحظة كره طوله الفارع، ودّ لو كان قصيراً، قصيراً للغاية، أقصر من قزم، في مساواة عقله الإصبع ليستطيع خلع حذائه سريعاً ودهس العنكبوت بغتة. أخذ يحسب المسافة بينه وبين الباب إذا ما رفع إحدى قدميه لخلع الحذاء، لكنه فشل في تذكر الأرقام وشعر بأن قدمه لا تستجيب له. من أين أتى ذلك الوحش

الصغير؟ لقد كان هنا صباحاً ولم ير شيئاً منه، لكنه تذكر أنه لا يستخدم هنا سوى المبوالة ويتقزز من الرائحة التتنة بداخل تلك المراحيض المغلقة. كانت الرائحة قوية حتى كادت تلتصق به. لو فقط يستطيع استخدامها لتكون حائلاً بينه وبين العنكبوت.

حرك العنكبوت قدميه قليلاً، فكاد مجدي أن يصرخ، لكن فمه انفتح مرتعباً ولم يطلق أي صوت. استمر العنكبوت في حركته المتمهلة وكأنه ينتظر فريسته لتقع، بينما انكمش مجدي داخل ملابسه وسرت برودة قاسية فوق عظام ظهره. ظل يتقلص كلما زاد العنكبوت في تحفزه، حتى صغر تماماً ووصل لأرضية الحمام، فقفز العنكبوت فوقه ولفه داخل خيوطة الناعمة المطاطة، وصعد به ليضيفه لغدائه وراء الباب.

حين دخل حامد الحمام عقب انتهاء اليوم باحثاً عن مجدي، لم يجد سوى لفافة الدهان ملقاة على الأرض في إهمال.

إله السينما الصيفية

كانا قد عادا لتوها من رحلة للمدينة، سعد وأبوه. كان سعد مرتدياً سترة بنية كالحلة بالكاد غلّفت قميصه وساعدت في تدفئته في ليل خريفي بارد. كانت زيارة قصيرة تأرجح فيها الصغير فوق السلم المتحرك بالمبنى التجاري الجديد الذي عمل أبوه في السينما الصيفية أعلاه. صعد ونزل عدة مرات على السلم المتحرك، وتدرّب على التوقيت المناسب الذي يدفع فيه جسده خارج السلم دون تعثُّر. وحين بدأ عرض الفيلم، أجلسه أبوه على كرسي خالٍ في الصف الأخير، رغم أن الكراسي أمامه كانت خالية أيضاً إلا من بعض الوحيدّين.

عين على الشاشة وعين على أبيه، فيما كان أبوه يصول ويجول في الأرجاء، يبيع الفشار واللب الأبيض والأصفر. أحلّ ظل أبيه محل الفيلم. رآه أعلى الشاشة الضخمة، برأس عارٍ منتصب نحو السماء. يلقي بتساليه على المشاهدين برفق، كل صف على حدة. وبعد انتهائه، يمسك بيديه خيوطاً طويلة غير مرئية، ويبدأ في تحريك الممثلين. يخلع عن هذه ملابسها ويسمح

للشباب أمامها بتقبيلها. يصنع مشاهد الضرب والحركة، يُحرِّك الخيوط بعنف فتصطدم السيارات بعضها ببعض وصوت الارتطام يخرق أذنيه. كان إلهًا للسینما، طويلًا، رفیعًا، أصلع، استبدل شعره بخيوط التحريك، يمكنه قضم قطعة سحاب بين أسنانه ونفثها فوق رؤوسهم، فتخرج ناعمة رقيقة كدخان يفصلهم عن تيارات الهواء الباردة.

حدث الأمر بغتة بعد عودتها للبيت، لم يكن يدرك أن أمرًا كهذا يمكن حدوثه. لكنه أحس بأن العالم يُحدِّثه، يعطي له الإشارات ويحثه على الفهم والاستجابة. حين طردت أمه أباه وألقت بملابسه من شباك حجرتهما، سهر سعد ليلته. لم يتخيل أباه يخطو لمحطة القطار، ولم يره جالسًا على كرسيه كالمسافرين، بل كان موقفًا بأنه خلق حتى حل على شاشته ومارس دوره اليومي كما اعتاد.

ليلتها، سمع تخميشًا على زجاج نافذة حجرته القريبة من الأرض، قبل أن يمد النور رقعته. التصق أكثر بفراشه كقراصة توجسًا وقلقًا. دفعت يد ما مصراع النافذة وألقت ورقة كبيرة مطوية في عجالة. أسرع سعد ليلتها، ثم فتح النافذة مبتسمًا لصاحبها، لكنه كان قد اختفى. لم يعرف قط إذا كان أبوه من ألقاها أم أنه شخص أوصاه بأن يفعل. لكن أيًا كان من فعلها، فلا بد أنه كان سريع الحركة، شخص لا يخطو، إنما يطير.

استدعى سعد تلك الأحداث بعد سنوات بلغت العشر، كما هي بالترتيب نفسه، كأنها طازجة تلمع في ذاكرته. افترش الحقل وأشعل سيجارة، وترك الذكرى تنساب أمام عينيه، بينما جسد أمه الميت ينتظره في الكفن على طاولة الغسل بالبيت. لم يُرد رؤيتها، اكتفى بمعرفة أن جسدها الهزيل مهزومٌ هناك، ومتحرزٌ أخيراً من غضب لم تعرف كيف تصرفه، فأمطرته فوق رأسه كسهام مشتعلة.

كان يراقبها أثناء بحثها عن أبيه. يرى الغضب يمتد ويتوغل أكثر في روحها يوماً بعد يوم. خيط طويل كحنق غليظ التف حول عنقها القصير، حتى خنقها خنقاً ولف جسدها الأحمق. وفي كل مرات فشلها تموء بإحباط وتتكور في فراشها وتجرب سعد للهاوية معها. ورغم سخطه لكنه كان يعدّ طعامها بنفسه حين تتوقف تماماً عن تناوله. يجلس في المطبخ ينتسّم الروائح الشهية لأكلاته البدائية، محاولاً تشتيت توبيخ أمه له المتناثر في ذرات الهواء.

هرب منها دوماً للحقول الواسعة. هناك، مع صبية آخرين هارين، عبث بأعضائه ودخن السجائر وألقى النكات القبيحة، وأقسم على المغادرة والبحث عن أبيه فوق شاشات السينما بالمدينة. لكنه لم يجد مهرّباً من مسؤولية ما خفية نحوها، كان يعزي نفسه بمحاكاة الأفلام التي رآها مع أبيه. يجمع الصبية ويجلسهم في صفوف بالحقول المجاورة. يحكي لهم قصة الفيلم

ويختار منهم من يمثلون معه الأحداث، ويقضون نهارهم يحفظون الجُمْل ويعيدون تمثيل المشاهد واللقطات. لم يكن في بلدتهم قاعة سينما، وبعض الصبية لم يروا الشاشة الضخمة قط. فأصبح سعد أكثر لمعاناً بينهم، يسير فيتبعونه مأخوذِينَ بسحر حكاياته وأفلامه.

تأجّل رحيل أمه عامًا بعد عام، والورقة المطوية في عجالة ما زالت بحوزته. يرت عليها كلما تفقدها، والبريق المنعكس من ضوء الشاشة فوق صلعة أبيه يداعبه.

بعد عودته من مراسم الدفن، كانت الأمور مبهمة. لم يتضح شيء بعد واستمر الالتباس يخيم عليه. ملابس أبيه المتطايرة من الشباك، عويل أمه، ورقة مطوية في عجالة، شاشة ضخمة تلامس السحاب، طعام بدائي فوق الوسائد، تويخ متواصل يملأ رثتيه، حكايات تركها على النواصي وبين الحقول، خمش أظافر على زجاج، ورؤى ضبابية رآها في ليلته الطويلة الأولى له بعد رحيلها.

نهض وابتعد عن فراشه، توجه للحمام ليستحم وينفض آثار الكوايس عن عقله. وكالمعتاد تأنّى وترك غطاء الوعاء الكبير يتقافز أمام عينيه، بينما تتسارع الأبخرة في أسفله. كان هو أيضًا أسفل الغطاء، يجاهد ليخرج.

ملاً البانيو الصغير بالماء البارد، ثم أطفأ نار الموقد ونقل الوعاء بجانبه. وبعد خلط المياه الساخنة بالباردة، خلع ملابسه بسرعة واندس في الماء. مدّ جسده أمامه وغمر رأسه تمامًا، كأنه دُفن بصحبته، كأنه لم يترك القبر الذي وضعها فيه. أغمض عينيه ورآها، امرأة سمراء قصيرة صارمة، حدثها ظاهرة على محياها، تبتكر له العقاب تلو الآخر، لم يتذكر قط ذنبه، لكن العقاب لم يلبث أن طارده كل هذه السنوات.

يتذكر وقفته، طفلاً، وحيداً خائفاً، يغتسل بمفرده بين جدران هذا الحمام المتهالك. مندساً بين جوانب البانيو الصغير وقد أغراه الماء الساخن وأشعل أعصابه. وبينما قطعة الليف تزحف فوق جسده ماراً ب صدره نزولاً إلى البطن ثم أسفله، دخلت أمه بغتة و صفعته على ظهره بقوة، ظناً منها أنه يعبت بعضوه؛ ضم فخذه ل صدره خشية قرصة مفاجئة. استمرت بالصفع قائلة بغضب "ما صدقت بقيت عريان لو حدك يا ولا؟ إنت عارف الي بيلعب في بلبله ربنا بيعمل فيه إيه؟". لم يعرف قط الإجابة، وأصبح أكثر حرصاً في مراته المقبلة. حين فتح عينيه رأى البخار يتصاعد من حوله حتى السقف، مُكوّناً فقاقيع ماء صغيرة متجاوزة تستعد للهطول مرة أخرى، لتصبح برك ماء ضحلة فوق البلاط الإسمنتي. وقد تلاشت ملامح أمه من أمامه وكذلك الغضب.

كان قد نوى المغادرة منذ أسابيع قليلة. لكنه لم يعرف هل عليه إخبارها أم يتركها هكذا ويمضي. سكنت تساؤلاته برحيلها المفاجئ. أخبر الجميع بالمدفن أنه لن يتلقى أي عزاء بعد الدفن، وصمّ أذنه عن الأسئلة والاقتراحات، تغلف بحزن رفيع لبيتعد عنهم ويتخلص من عبء الواجب.

وبعد انتهاء الماء الساخن من الوعاء، ارتدى ملابسه بسرعة حتى لا يتسلل البرد لعظامه الصغيرة. كان قد انتهى من إعداد حقيبة وحيدة بها ما يصلح للمدينة، وتأكد مرة أخرى أنه لم ينس الورقة الكبيرة المطوية في عجالة. ورقة كان بوسعها إراحة أمه، لأن أباه كتب فيها عنوانه تفصيليًا، ولم يخبرها سعد قط بأمرها. "لم تستحقها" همس لنفسه بلهجة قاطعة ليغلق كل نوافذ العواطف التي تريد الحياة.

وهناك، بالمدينة، لما لم يجد أباه في العنوان، ذهب للمول الذي لم يعد جديدًا وتعطل سلمه الكهربائي للأبد. توجه لصالة السينما الصيفية التي لا تغلق أبوابها حتى في الشتاء. اعتلى الشاشة الضخمة، وفي المنتصف انتصب واقفًا وألقى تساليه التي ابتاعها قبل صعوده. ألقى حبات اللب والسوداني المقشر والفشار، وهو يرى الجميع يركض في اتجاهات مختلفة، حشود صغيرة مسرعة كالنمل. نثر خيوطه الطويلة غير المرئية ليتحكم بالمكان. وترك الممثلين أحرارًا ليرتلوا نصًا خاصًا بهم، لأول مرة، استطاع

إعادة النظام وإخماد الفوضى. أدرك أن ذلك إرثه الذي طالما انتظره، وأن أباه حلّق بعيداً، بينما بريق صلعته لا يزال يعكس الضوء وينير المكان.

ماذا حدث منذ قليل؟

- أنت مبتل!

شهقت المرأة، ونظر إليها زوجها ببلاهة ثم تحسس معطفه:

- نعم، لقد أمطرت منذ قليل.

- أين أمطرت تحديداً؟

- هناك، في الشارع المقابل - وأشار في اتجاه الجنوب مرتبكا.

- لا، لم تمطر هناك!

- وما أدراك؟

ثم سحبته من يده:

- تعال معي لتريني المطر.

سار الرجل بجانب المرأة، لا يحاول أبداً تخطيها. كانت غاضبة تسير كعاصفة، ومعطفها يتطاير حول جسدها الضخم. وصلا للشارع المقابل

حيث أكد زوجها حدوث المطر، وقالت:

- أين المطر الآن؟

- أمطرت هنا منذ قليل، قبل أن آتي إليك!

بدون كلمة، وبخدين مشتعلين من شدة الانفعال، رفعت حقيبتها وضربته فوق رأسه، وسارت مبتعدة وهي تسبه بكل الألفاظ التي تعرفها.

وقف الرجل وحيداً ينظر حوله. تحسس معطفه عدة مرات في حيرة، ثم سار بمحاذاة المباني القديمة ووقف يتحسس معطفه مرة أخرى. في الظلام، لمح ضوءاً برتقالياً دائرياً، يتحرك بمفرده في الهواء. اقترب أكثر ليرى، فكانت سيجارة مشتعلة بيد رجل.

- مساء الخير.

قال لرجل السيجارة وهو يثبت ياقة معطفه حول رأسه. لا يرى من رجل السيجارة سوى كفٍّ، لكنه سمع حشرة نابعة من حلقه تبعها سؤاله:

- هل تشعر بالبرد؟

- قليلاً، لقد أمطرت السماء هنا وبللتنى تماماً.

نهض رجل السيجارة واقترب منه ليتفحصه:

- بجدد؟

- ماذا؟

- هل أمطرت هنا منذ قليل؟

- نعم، أعتقد ذلك. ألم تر المطر؟

سحب رجل السيارة نفسًا عميقًا من سيجارته ثم نفث الدخان في
الهواء:

- أنا أيضا معطفي مبلل، لكن لم أر مطرا هنا!

- إذن ماذا تعتقد؟

هرش رجل السيارة رأسه:

- لا أعرف، لم أفكر في هذا.. لماذا يشغلك هذا الأمر؟

- رأيتني زوجتي مبللا وحين أخبرتها بأمر المطر غضبت وضربتني
على رأسي بحقيبتها

- لماذا تخبرها بالحقيقة؟

أطرق الرجل خجلا:

- قلت لك، لقد ضربتني.. إنها امرأة كثيرة السباب.

ضحك رجل السيارة:

- يا لك من أحمق! أنا أحب المرأة كثيرة السباب.

وسحب نفسا آخر من سيجارته، وأضاف:

- إنها لم تمطر هنا، أنا أعرف مصدر البلل.

نظر إليه الرجل متسائلا، فيما مشى رجل السيجارة خطوات قليلة للأمام وأمره بأن يتبعه. صعدا معاً أحد المباني المجاورة، ثم توقفوا أمام باب خشبي متهالك. طرق رجل السيجارة الباب، ففتحت امرأة أربعينية بعد وهلة، بوجه نصف نائم وشعر منكوش. اعتذر رجل السيجارة للازعاج:

- نحن مبللان بالكامل، ونود أن نعرف هل ألقيت ماء غسيلك بالشارع منذ قليل؟

صفقت المرأة الباب بعنف، فتبادل الرجلان النظرات الحائرة، وعلق الرجل الأول:

- كما لو أننا لصان!

قبل أن يستديرا لينزلا الدرج، سمعا صوت المرأة تزعق في شخص ما ثم صوت ارتطام شيء صلب بالأرض، قال رجل السيجارة:

- يبدو ككرة خشبية.

- انتظر، ما الكرة الخشبية؟

- لا أعرف، لكن صوت الارتطام يشبهها.
- لكن كيف تعرف أن الصوت يشبهها إن كنت لا تعرفها؟
- فُتِح الباب ثانيةً، وأطل منه رجل نحيف. نظر إليهما ونظرا إليه:
- كيف أساعدكما؟
- جاء صوت المرأة الغاضب من الداخل تصيح:
- ألم أمرك ألا ترمي ماء الغسيل بالشارع مرارا، بل وتجلب لي هؤلاء الحثالة، هنا لباب بيتي؟
- وتبعها صوت ارتطام آخر، هذه المرة كان طبقا خزفيا بالتأكيد. تخرج الرجل ونظر إليهما مبتسما:
- معذرة، إنها تتحدث أثناء نومها، أنا لم ألق أي ماء بالشارع وردّ رجل السيجارة بينما يستدير لينزل:
- لا عليك، بالتأكيد لقد أمطرت بالأسفل، سننزل لنستطلع الأمر.
- غاب الرجل ثانية بالداخل وخرج مسرعا بصحبة معطفه وأغلق الباب وراءه وقال نازلا:
- حقا؟ هل أمطرت الليلة؟ دعوني أستطلع الأمر معكما.

وقف ثلاثتهم بالشارع. رجل السيارة بينهما، لا يبدو أن سيجارته ستنتهي قريباً. قال الرجل الأول:

- هكذا تأكدنا أنها أمطرت بالفعل.

- لا لم نتأكد بعد، الأرض جافة تماماً ونحن مبللان. لا بد أن هناك سبباً لذلك - قال رجل السيارة ونظر للرجل النحيف وأضاف:

- هل ألقى ماء غسيلك؟

- لا لم أفعل، لماذا قصدت شقتنا نحن بالذات؟

- لأنني أرى زوجتك دائماً تفعل ذلك.

- لا أظن، لا بد أنك مخطئ، حتى انظر لشباكنا بالأعلى، هل به أي غسيل على أحباله؟

نظر الرجل الأول ورجل السيارة لأعلى لكن الظلام حال دون الرؤية الواضحة، واختلطت الشبايبك ببعضها. سأله الرجل الأول:

- أين شباكك تحديداً؟

أشار الرجل النحيف بيده لأعلى:

- الأزرق المقشر من الجنب، ثالث شباك يمين.

تذمر الرجل الأول:

- وهل سأرى أزرق مقشر في ليلة حالكة كهذه!

قاطعهما رجل السيارة:

- إذن، أنت لم تلق الماء من شباكك.

وقف الرجل النحيف أمامهما ورفع يديه اليمنى لأعلى فوق رأسه، ثم
نزلها قليلا، لتبقى راحة يده بجانب رأسه، وقال بأداء مسرحي:

- أقسم لكما أنني لم ألق أي ماء من الشباك، ولم يكن لدينا غسيل في
حمامنا أصلا.

حل الصمت، ونظر إليه الرجلان حتى قال رجل السيارة:

- ونحن نصدقك.

- لماذا تقول نحن؟

- لأن علينا تصديقه!

- لو كانت زوجتي هنا لم تكن لتصدقه.

- نحمد الله أنها ليست هنا إذن.

نظر الرجل الأول للسماء وتنهد:

- لقد أمطرت هنا منذ قليل.

في هذه اللحظة، سحب رجل السيجارة نفساً قصيراً:

- اسمع يا رجل، ما تقوله شيء مريب. لا يمكن أن تظهر هكذا فجأة لتقنعني بأن السماء أمطرت بينما لم تمطر!

- لكنك مبتل تماماً مثلي، أليدك تفسير آخر؟

- لا ليس لديّ، لكنه غريب أن تمطر دون رؤية المطر.

- دعونا نسأل الله، قاطعهما الرجل النحيف ويده في جيب معطفه.

نظرا إليه بدهشة، وقال الرجل الأول بلا اكتراث:

- لن يجيئنا.

سأله الرجل النحيف:

- لماذا؟

- لم يجيئني حين سألته عن مرض ابني.

صمتوا ثانية وسحب رجل السيجارة نفساً من سيجارته. لا يتحدث سوى بعدّ النفس، كأنه يسحب الكلمات منها وليس دخاناً، لذلك فكر الرجل الأول أنها ملهمته.

- مرض ابنك يتطلب الكثير من الشرح لكن أمر المطر بسيط.

وجّه الرجل ذو السيجارة سؤاله للرجل النحيف:

- هل تعرف كيف نسأله؟

هزّ الأخير رأسه نافيا:

- لم يحدث أن سألته عن شيء من قبل.

سأله الرجل الأول:

- ألا تصلي؟

- ما علاقة الصلاة بالسؤال؟ أيجيبك إلهك عن شيء أثناء الصلاة؟

فكّر الرجل الأول قليلاً وهزّ رأسه نافيا، فيما قال رجل السيجارة:

- أنت تقول إنها أمطرت، وأنت تقول إنك لم تلق أي ماء من الشباك.
وأنا لا أثق بكم، دعونا نذهب لرجل السقف.

سأل الرجل النحيف:

- من؟

سار رجل السيجارة بخطوات واسعة ناحية نهاية الشارع وتبعه الرجل النحيف بفضول، بينما تأخر الرجل الأول قليلا لا يعرف ماذا يفعل، لكنه تبعهما في النهاية لأنه يحتاج أن يعود بمبرر أقوى ليهدئ غضب زوجته.

وصلوا الآخر بيت بالشارع، بيت مرتفع أقصى اليسار، حوالي خمسة طوابق. صعدوا الدرج بأقل جلبة ممكنة. تساءل الرجل الأول بينه وبين نفسه عن الناس، لماذا جميعهم في أسرّتهم هكذا، أين ذهب السهر وتمضية الليل في الشوارع؟

وصلوا أخيراً الباب بُني متآكل من الأسفل. طرق رجل السيجارة الباب بعد سحب نفس من سيجارته، نفس طويل كأنه يأخذ الكلام كله دفعة واحدة. فتح الباب رجل ضخّم، بطنه المنتفخ أمامه، ونظر إليهم في دهشة ثم سأل الرجل النحيف:

- أأست جارنا هنا؟

أجابه رجل السيجارة:

- وأنا أيضاً جاركم.

- عفوا لا أتذكرك! هل كنت مسافراً؟

- لا، أنا بالشارع طوال الوقت. أسكن بجوار المخبز.

- أهلاً بكم، لكن من هذا؟

وأشار للرجل الأول، فنظر الرجل النحيف إلى نفس الرجل وسأل رجل السيجارة:

- صحيح، من هذا؟

نظر إليه رجل السيارة بدوره وقال:

- لا أعرفه، إنه رجل يبحث عن من بلل معطفه

سأل الرجل الأول رجلَ السقف متجاهلاً رفيقه:

- هل أمطرت منذ قليل؟

اندهش رجل السقف من سؤاله وقال:

- وما أدراني إن أمطرت؟

غضب الرجل الأول قليلاً وسأل رجل السيارة:

- ألم تقل إنه يعرف؟

قال رجل السيارة بسرعة:

- لا لم أقل ذلك!

سأل الرجل النحيف:

- إذن لماذا نحن هنا، دعونا نبحث عن المطر في مكان آخر.

جاء صوت امرأة من وراء الباب:

- هل بدأ موسم المطر، هل أمطرت الليلة؟

اشتعل وجه رجل السقف وحاول تهدئة الموقف موجهاً رأسه للداخل:

- اصمتي يا امرأة، من ذكر المطر هنا؟

- نعم، لقد بدأ موسم المطر. كم مرة طلبت منك إصلاح السقف، وها قد بدأ وسنغرق كالسفن الفاتية!

سحب رجل السقف معطفه وخرج مسرعاً وأغلق الباب وراءه، لكن هشاشة الباب لم تمنع صوت المرأة من الوصول إليهم. ضحك رجل السجارة ضحكة مكتومة وقال في سره:

- يا لكم من حمقى، كم أحب المرأة كثيرة السباب.

ساروا بمحاذاة حجرة رجل السقف. حجرة صغيرة مبنية بالطوب الأحمر فوق سطح البيت، سقفها ضعيف ومكون من عدة طبقات من الصفيح. قال رجل السقف:

- الأرض جافة، متى أمطرت بالضبط؟

قال الرجل النحيف:

- لا أعرف، هذا من قال إنها أمطرت.

وأشار لرجل السجارة الذي سحب نفسه من سيجارته وقال:

- لا لم أقل ذلك، بل هو من قال إنها أمطرت.
- وأشار للرجل الأول الذي قال بدوره:
- لم تصدق زوجتي أيضًا. لكن لماذا نحن هنا؟ وجه سؤاله لرجل السيجارة.
- ألم تفهموا بعد - قال رجل السقف - انظروا لهذا السقف، إن أمطرت من سيدرك ذلك أسرع منه؟
- بدا الأمر منطقيًا للجميع الآن، فأكمل رجل السقف:
- ونحن لم نبتل بالداخل.
- لكن الرجل الأول باغته بسؤال لا علاقة له بالمسألة:
- لماذا لا تصلح السقف وتتقي شر زوجتك يا رجل؟
- لأنك أحمق. هل نمت قبلا تحت سقف من الصفيح أثناء المطر؟
- لا لم أفعل، لكنني رأيت غضب الزوجات، وتحسس رأسه الساخن من أثر الضربة.
- الأمر أشبه بالسحر، نقرات المياه على الصفيح واهتزازاته بفعل الرياح أجمل من أي جنس مارسه من قبل. زوجتي امرأة شمطاء لا تفهم شيئًا.

سرحوا جميعا في كلماته، وسحب رجل السيارة عدة أنفاس متتالية من سيجارته، فيما قال رجل السقف:

- دعونا نصعد للسقف لنرى إن كان هناك أثر لأي ماء.

صعد هو أولا، تسلق سلما خشبيا وصعد بصعوبة لاحتكاك بطنه المتنفخ بدرجاته، ثم تبعه الرجل النحيف فرجل السيارة الذي علق سيجارته بين شفتيه حتى وصل لأعلى، وأخيرا الرجل الأول. أشار لهم رجل السقف أن يسيروا أقصى اليسار حتى لا يسقطوا في منتصف حجرته. مسك ذراع كل منهم ليساعده في العبور.

- يا ربي، إنكما مبتلان، من أين لكما بهذا البلبل؟

وصلوا لحافة السطح وجلسوا متقاربين وأرجلهم معلقة بالهواء.

الشارع الطويل تحت أقدامهم والليل يحيطهم. سحب رجل السيارة علبة السجائر من جيب المعطف الداخلي، ووزع من علبة سجائره عليهم.

قال رجل السقف:

- الشتاء لا يزال في بدايته.

ثم سحب نفسا من سيجارته بلذة وأضاف:

- أفضل جنس، أليس كذلك؟

لم يجبه أحد، كانوا شاردين داخل المشهد الليلي الصامت.
بينما قال الرجل الأول بصوت خفيض:
- أنا متأكد أن السماء أمطرت في هذا الشارع منذ قليل.

موسيقى الممر الخلفي

تفحص علي يديه بنظرة طويلة وانتبه إلى أن أظافره متسخة، فطلب من محمود منديلاً. من يهتم بأظافر صبي مكواة؟ من يراه؟ لكن أظافر صبي المكواة، بحسب ما قال علي، أهم من المكواة نفسها.

حينها، رفع محمود أظافره لأعلى بمحاذاة عينيه، وردد ساخراً عبارة علي عن أهمية أظافر الصبي، فتجاهله الصبي ومال للأمام ليربط حذاءه، فوجده مربوطاً، فعدل من وقفته مرة أخرى. نظر بتمعن في زجاج سيارة مجاورة ليتأكد من هيئته النظيفة وشعره الممشوط. كان أمر أظافره يلح عليه ويفسد كل الترتيبات. حين لم يجد من محمود أي انتباه، انسحب غاضباً وهو يفرك أظافره داخل كفه. بينما ضحك صاحبه ضحكة مكتومة وجلس على الرصيف.

لاح الأمل أمامهما في ذلك النهار. لم يكن محمود يتخيل أن أي أمل قد يلوح في قيط كهذا. عرقه غزير، سال فوق جبينه وأهلب عينيه.

كان الشارع خالياً إلا من بعض المارة، حتى أن ققط الشوارع وكلاهما كانت مخبئة تحت السيارات الساخنة.

فرك محمود نصف سيجارة احتفظ بها منذ الليلة الفائتة، ثم عدل جلسته سائدا ظهره إلى مقدمة إحدى السيارات في قبالة مدخل العمارة، حيث يكون في وضع استعداد للجري في أي وقت إذا ملح علي يجري من مدخل العمارة، أو سمع صوته يصرخ.

نظر إليه وهو يتعد، كان علي طويلاً بظهر منحني للأمام، يرتدي قميصاً بييج نظيفاً، غسله محمود خصيصاً من أجله وعطره بباء الورد بعد سرخته من غرفة جده. أكثر ما انتبه إليه محمود هو قفاه، كان كهلاً عريضاً انحنى تحت ثقل رأسه الكبير الذي يكاد يسقط منه إذا لم ينتبه. كان يمشي عكس أشعة الشمس التي تكسرت على هيئته، وتموجت جزئيات الهواء من حوله. بدا كأنه يسير في قلب زمن آخر.

تململ علي قليلاً قبل الصعود. عليه أن يقوم بمهمته بسرعة واحترافية كأنه وُلد ليقوم بها في كل يوم من عمره. يطرق الباب ويسأل السؤال في خفة دون الإمعان في النظر، ثم ير حل سريعاً سواء أخذ ما جاء من أجله أم لا. اختار محمود هذه البناية لأنها بلا حارس منذ عدة أيام. بجانبها بناية أخرى مشتركة معها في السلام الخلفية، بذلك يمكنه التسلل إليها دون المرور على مدخلها.

هو الآن صبي الكواء، عليه تصديق ذلك. لطالما تساءل عمن يكون، لذلك يحب السينما ويتقمص الأدوار ويحفظ المشاهد ويعيد الحوار على آذان من حوله. ربما كان يقول لنفسه: أنا الآن صبي الكواء، ألوح من حرارة المكواة، من وراء المناضد العالية والمشاجب البلاستيكية الرخيصة الملونة. أرسم بقطعة حديد ساخنة خطوطاً متوازية ملساء، وأهذب الثنيات. أنا الحاضر الغائب في نزهااتهم واجتماعاتهم وأفراحهم وجنائزهم. أقف دوماً في الظلام بينما هم في دائرة الضوء.

ردد جملته عدة مرات وهو في طريقه للطابق الأول، ككومبارس أصبح لديه جملة طويلة أخيراً على خشبة مسرح. طرق الباب الأول ببطء وأظافره مغروسة بلحم كفه. طلت فتاة برأسها بسؤال متعلق بعينيها:

- نعم؟

فردّ بصوت مبحوح حاول أن يبدو طبيعياً:

- مكوى؟

واربت الباب وغابت دهرًا كاملاً ثم عادت ببعض الملابس المكرمشة. وضعتها في يده بعنف وأغلقت الباب. فتش بها على عجل، لكنه لم يجد ما يستحق التوقف لأجله. فتوجه للباب الثاني، بخطوات أكثر خفة. تكرر المشهد الأول وأغلق الباب ويده بعض الملابس. بدأ يحب اللعبة بعد الباب

الثالث، ولم يعد يفتش فيما بين يده، ونسي أمر أظافره القذرة.

أصبحت خطواته أكثر اتساعاً، خطوات رشيقة راقصة، حتى إنه التفّ حول نفسه عدة مرات عند بداية الدرج للطابق الأعلى. تذكر دومينيك (*) في نشوته وعبوره الشارع بينما نودلز يعزف في الخلفية موسيقى هادئة. لا بد أنه كان سعيداً جداً في تلك اللحظة، أكثر سعادة منه هو الذي يسير في طرقات ضيقة تأكلها الرطوبة وتلعب في أنحائها القلط الجرباء والفئران. كان لهذا الشعور وقع غريب على نفسه، لم يسبق له الشعور بالفرح هكذا. صوّره له الوهم أنه فاض سروراً، لكن هنا بين الدهاليز المتعفنة وهو يسرق، لا يعدو كونه "حرامي غسيل". هنا توقف ورأى أمامه مشهد قتل دومينيك وردد جملة الحزينة بنفس البطء:

- نودلز، لقد انزلت.

حين نزل لمحمود، كانت كومة ملابس بيده، وأفكار الموت برأسه قد سيطرت عليه. أشار له بأن يسرع وتوجها لشارع جانبي. نظر لمحمود وقال:

- "أحياناً عندما أقود السيارة، على الطريق ليلاً، أرى ضوء فانوسي سيارة يتجهان نحوي. يدفعني شعور مفاجئ لأن أدير المقود بسرعة واتجه

(*) دومينيك: المشهد من فيلم once upon a time in America

لأصطدم بالسيارة القادمة. أستطيع توقع الانفجار(*)...

قاطعه محمود بلهجة درامية:

- أحسن حاجة في الفيلم الأخير إنه كان أكشن، مليون دم وعنف،
وأهو الحمد لله خلّصك من برودك.

- أنا جاد فعلا في فكرة الانتحار، انت ما فكرتش في دا قبل كده؟

- الرجالة ما بتنتحرش، وبعدين هنتحرف ليه؟ ما فيش أجمل من الفرجة
على فيلم، مرة بطله يتتحرف ومرة بطله شاب رومانسي بيشتغل في المكوى
وييسرق الهدوم، وفي الآخر يموت فأى حارة.

سارا متجاورين في صمت. يوجهه محمود بعناية. قطعنا الشارع التجاري
الواسع، وتوجهنا لمتجر ملابس صغير. دخل محمود بمفرده ليتفاوض بشأن
السعر، بالكاد يسمعه علي يجادل ويحسن التفاوض، يعلو صوته وينخفض
حسب المبلغ المطروح. كان الظلام بدأ يخيم على المكان، وبدأت حركة
الشارع تزيد. كان علي مغمورا بهدوء كالذي يسود بعد بداية العرض في
صالة السينما.

توجه لمقهى مجاور، انتظارا لانهاء المفاوضات، ورأسه يثقل أكثر فوق
كاهله العريض. عاد محمود وكان مزمووم الشفتين. عرف أنه لم ينجح هذه

(*) العبارة من فيلم Annie Hall

المرّة، ودّ لو يقول لا تبتسّ، فالبؤساء هم الآخرون جميعاً (*) لكنه لن يضمن رد فعله، فصمت. عرف إنها سيكرران ما فعلاه مرّة أخرى، لم يكثرث. قلب شفتيه وطلب شايا خفيفا بالنعناع.

حدد محمود البناية الثانية، وقال لـ علي عليك أن تكون أسرع هذه المرّة، دعنا ننتهي مبكرا. مال علي ليربط رباط حذائه، بقى قليلا في الأسفل ثم عاد إلى وضعه، وهز رأسه متفهما.

في البناية الثانية، كانت خطواته أسرع وطرقه على الأبواب أخف. كان يخشى صبي المكواة الحقيقي، لكنه اطمأن قليلا حين نهره عجوز لأنه لم يعد يمر كثيرا كالسابق. يسير بحذائه في خطوط مستقيمة، موازيا للجدار ومتجنباً النظر للمناور لأنه يخشى الفئران.

طرق الباب الثاني في الطابق السادس بتملل، ونوى أن يكون الطابق الأخير. كانت كومة الملابس بيده تعسفه. أسند ظهره على الجدار المقابل متجاهلا رغبة ملحة في إشعال سيجارة. كاد يبتعد حينها تأخر أصحاب الشقة في الرد، لكنه طرق الباب مرّة أخرى إمعانا في التأكد.

فتح طفل صغير، نظر إليه بعين كبيرة متفتحة ثم جري من أمامه في الممر الطويل واختفى في المنحنى. ظل واقفا لثوان، ثم فتح الباب بأطراف

(*) العبارة من فيلم Annie Hall

أصابعه. موسيقى هادئة تتسلل من وراء الممر، استمع إليها بملء أذنيه كعطشان. كانت كفاصل رقيق بين ما مر من حياته وما سيأتي. تبعها وخطا ببطء في الممر، كان الحائط غامقاً، أملس وبارداً، فكر أنه مغلف بالرخام. لم يستطع الرؤية ليتأكد، كانت فكرة لصق أحجار رخام ضخمة بحائط مزعجة بالنسبة له. الموسيقى خلفية غير ملائمة لمشهد تقطيع الرخام ولصقه متجاوزاً في ممر شقة بالدور السادس. لم يستطع تخيل المشهد كاملاً، كأنها ارتبطت نهايته بنهاية الممر الرخامي، لكنه خطا خطوات كثيرة ولم يصل بعد. لا يعلو صوت الموسيقى كلما خطا، لا تقترب ولا تبتعد، نغمات لها وقع ثابت.

ظهر الطفل أمامه مرة أخرى، باكيًا نصف عارٍ، وبعد أن حدّق فيه من آخر الممر، أشار إليه أن يتبعه. انكمش الممر ليجد علي نفسه على حافته، أمامه ردهة صغيرة، يتوسطها سجادة حمراء هزيلة، لم تفلح المساحيق والفرشاة الخشنة في إزالة البقع الغامقة منها، ومع ذلك بدت نظيفة والبقع بدت كشامات الحسن، صغيرة ومتناثرة. على كرسي بمسند، كان هناك رجل جالس بملابس داخلية بيضاء أمامه تليفزيون صغير، تصدر منه الموسيقى. بشاشة التليفزيون شرخ وشریط أسود عريض، يدور فيها من أعلى لأسفل ببطء. تجشأ الرجل محدقاً بالتليفزيون، لم يبد أي دهشة من دخول علي المفاجئ. ركض الطفل أمامه ويده كرة صغيرة يقذفها لأعلى مرارا حتى

ارتطمت بالشاشة الصغيرة فزداد الشرخ. مذهولاً، استقبل لكمة الرجل على ظهره وتبعته عدة لطعات على صدغه وذراعه الذي حاول حماية نفسه به. أسرع سيدة صغيرة من الداخل لتنقذه مولولة. وفستان بنفسجي طويل لم يفلح في تغطية نهديها بالكامل يتثنى مع حركات جسدها السريعة. انتشلت الطفل من يديه وحملته متوعدة له بكل ما استطاعت من القول. لم يتركها الرجل، قام خلفها بجسد هزيل غاضب. أزاح الطفل من حضنها وألقى به أرضاً.

تابع علي المشهد الذي أصبح إيقاعه بطيئاً، كان الفستان البنفسجي يخطف نظره. ألحت فكرة في عقله بأن هذا المشهد رآه من قبل. ألقى بها الرجل على الأرض، وذراعاها أمامها في محاولة استجداء. امتطاها بتلكؤ، ويدها تعبثان أسفل فستانها وترفعه. الطفل يبكي في ركن الحجرة على طرف السجادة، فيما يلج الرجل عضوه بداخلها، وفيما ينهج علي وينظر للفستان المرفوع ويغطى ذيله نهديها ووجهها. لم تطغ الصرخة على صوت الموسيقى أبداً ولا على صوت نحيب الطفل.

انتهى منها. ووقف وقدماه ترتعشان أسفله بينما ضمت هي قدميها، والفستان الممزق فوق خصرها. قال علي أخيراً: "لا"، لكن صوته لم يخرج، وبدأت الشقة صغيرة جداً. سمع الباب يصفق بقوة خلفه، وأدرك أنه غير مرئي هنا. كان شعور الخذلان يطفو في عقله، لقد خذل نفسه بعبوره الممر،

بأن سمح لرجل بعضو كعود كبرت أن يبينه بهذا الشكل، باستسلام المرأة المهين وفستانها الفاضح وفرجها الأبيض النظيف. لم يصدق أنها مغتصبة، قال لنفسه لقد رأيت شبح ابتسامة بين صرخاتها. لكنه تعاطف مع الطفل، مع ندبات زرقاء على فكه ورقبته، مع ظهره المحني قليلا للأمام يكاد يقع من ثقل رأسه.

لمح طرف الفستان البنفسجي على ذراعه. لم تسعفه ذاكرته، فلم يعرف من أي شقة حصل عليه. مال للأمام نحو الطفل، ربت على رأسه ثم حملة ولف جسده بالفستان البنفسجي. كثيرا ما كان يتساءل عن شعور من يحمل طفلا صغيرا بين ذراعيه، أسنده إلى كتفه وسار به نحو الممر. قال له (*):

- تعرف اللحن الي كان خارج من التليفزيون؟

- التليفزيون عطلان.

- والحن جي مين؟

- مني، أنا ال بدندنه.

- انت تعرف قصة اللحن دا إيه؟

هز رأسه نفيا، فتابع علي كلامه:

(*) العبارة منقولة بتصرف من فيلم Eternity and a Day

- هحكى لك قصته بعدين، أو ممكن نتفرج على فيلم يحكى لنا
القصة.

ثم ابتلعهما الممر الرخامي.

حجرة السيدة "س"

- أتعرف؟ أنا أحب أحذيتي القديمة.

قالتها السيدة "س" بعدما انتهت من ري أصص نباتاتها. لحجرتها بابان، وشباك صغير يطل على السماء. لن تقاوم الإطلال منه في ظهيرة الأيام الخريفية البديعة. على الشباك ستارة زرقاء تصل للأرض ويحركها الهواء كعروس ماريونت. يعكس الضوء المربعات المطبوعة على الستارة "الفوال" فوق الكنبه المجاورة وعلى أطراف وسائدها ويتدلى للأرض. حين تطير الستارة في فضاء الحجرة، تؤرجح ظلال المربعات في طريقها ذهابا وإيابا، وتتداخل المربعات وتختلط أشكالها وتتمازج لتكوّن أشكالا هندسية أخرى مختلفة الأبعاد ثم تعود لتربعاتها بسكون الهواء.

حجرة متوسطة، طويلة إذا دخلت من الباب الأمامي. الشباك الصغير أمامك على اليمين قليلا. أمامه كنبه اسطنبولي عريضة تحب أن تجلس فوقها السيدة "س" في الصباحات الرائقة. تراقب المربعات فوق طرف الوسادة، تعدها بهدوء وصبر وتعيد عدّها بعد كل مرة يخلطها الهواء في طريقه.

كانت تعلم أنها خمسة عشر مربعًا، ثلاثة في كل صف أفقي وخمسة في الصف الرأسي، لكنها لم تكف أبدًا عن عدّ ظلالها الساكنة بجانبها.

تشرب الشاي الخفيف بالنعناع قبل استيقاظ الجميع، لا تحب النعناع المجفف، إنما تضع أوراقه الطازجة في كوب الشاي. تغمسه بإصبعها الأبيض الأنيق في الماء المغلي بعد قطفه مباشرة من أصيص الزرع الذي يزين شباكها.

بجانب أصيص النعناع أصص كثيرة لكنك لن تراها من الباب الأمامي للحجرة. لن ترى منها سوى ما يسمح الهواء به أو إذا دعتك السيدة "س" لتسقيها وفتحت الستارة بنفسها. ثم تجلس بجانبك وتستأنف حديثها:

- أأحذيتي القديمة تعرفني أكثر مما يعرفني أي شخص آخر. هل ترى الإصبع الطويل المنفر هذا؟ إنها تحتويه وتحبه رغم قبحه. إنها تبسم في لطف في نهاية المشوار، قبل أن أستند إلى أطرافها كلاعب بالية قعيدة. حتى أنني أغمض عيني حين أكون بصحبة الحذاء الأحمر لأنه يعرف الطريق جيدًا ولا يخذلني. الأحذية القديمة الجيدة لا تخذل أحدًا.

لا ترد، فقط أومئ برأسك في تفهم. إنك هنا لأن السيدة "س" تريد الحكى لا لتستمع لحكاياتك، هي وقحة، لن تتأخر عن تذكرك بهذا.

أمام الكنب، على يسار الشباك، ستجد سريرها. سرير خشبي صغير

مطعم بالنحاس، لا يتعدى عرضه المائة وعشرة سنتيمترات. لن تقيس العرض بالطبع للتأكد لكنك ستسمع السيدة وهي تقول إن السرير عرضه مائة وعشرة سنتيمترًا بالتمام. ستسمعها تحكي عن زوجها الذي أرسل في طلب السرير خصيصًا لها قبل رحيله.

جفاها النوم على سريرهما العريض. فنقلته السيدة من أمام الشباك، لكنه كان عريضًا لدرجة لا تسمح له بالكموت في مكان آخر. حينها، أرسل زوجها طلبًا مع ابن عمه للنجار الأشهر بالقرية البعيدة ليصمم سريرًا خشبيًا بقوائم نحاسية عالية مخوفة لا يتعدى عرضه المائة وعشرة سنتيمترًا لأن السيدة تكره الرقم عشرين ولن تسمح المساحة يسار الشباك بسرير يزيد عن المائة وعشرين. ثم مات زوجها في اليوم التالي لقدم السرير. كان نائمًا فوق الكنب، كما كان ينوي أن يفعل بقية عمره.

بجانب السرير تسريحة بمرآة عريضة متصلة بدولاب صغير خاص بالسيدة فحسب، تحتفظ بمفاتيحه بجيب فستانها، وكل فساتين السيدة بها جيب في الناحية اليسرى حتى التي تأتي بدون جيوب، تخط بها جيئًا من القماش تقصه بعد تقصير الفستان لأن السيدة "س" قصيرة، أقصر من كل الفساتين التي تباع في هذه الناحية.

بالسريحة أربعة أدراج بدون مفاتيح لكن بقيود كثيرة مفروضة على من يجرو ويقترب. تحتفظ في أول درج بعلبة شيكولاتة بلاستيك أنيقة عليها

ورود بارزة ملونة، علبة دائرية بدون غطاء وبدون شيكولاتة كذلك، مليئة ببيكرات الخيوط الملونة وبالأبر الطويلة والقصيرة وإبرة كنفاه ودبابيس مشبك وإبرة وبروش فراشة مكسور جناحها وجناحها بجانب العلبة، وضعته في الدرج بمفرده لأنه مفرغ ويمكن للخيوط الاشتباك معه. نسيت مع الوقت وذكرتها أنا به حين فتحت الدرج دون أذن وأخرجت الجناح، كنت أنوي الاحتفاظ به. لكن السيدة رأتني قبل إخفائه بجيبي ونزعتني قائلة إن للجناح فراشة.

بالدرج الثاني، ألبومات صور، إذا أحبتك السيدة "س" ستأخذك من يدك وتجلسك فوق الكنبه العريضة، ستطلب منك تناول إحدى الوسادات التي بجانبك لتضعها في الفراغ بين ظهرك ومسند الكنبه حتى تستريح أكثر بجلسك. ثم تضع ألبوم الصور الكبير بحجرها والألبومات الأخرى بجانبها، متراسة الأقل عرضا بالأسفل والأكبر بالأعلى. ينزلق الألبوم الكبير طوال الوقت وتعديل هي وضعه باستمرار. ستود أنت لو تضعه بالأسفل ليستقر لكنها ستكون حريصة على وضعه هكذا، بالأعلى، لأنه الثاني في الترتيب الزمني بعد الذي في حجرها. إذا أحبتك السيدة ستزهقك، ستحكي لك عن تاريخ كل صورة.

السيدة "س" التي أخذت ذاكرتها في التآكل، لا تنسى أبدا لون فساتينها التي كانت ترتديها في الصور الأبيض والأسود، وستظل تبحث بعينها

الخضراوين حولها عن درجة اللون الأقرب لألوانها وحين تصل لصورتها التي تمسك بها الكرة على شاطئ المعمورة، ستشير لفستانها المنفوش القصير وتقول إن النقط الصغيرة تلك كان لونها أبيض بالفعل كما تبدو بالصورة أما الفستان نفسه فإنه بلون عينيها، وستبرق لك لتدعك ترى.

لن تعرف ما بالأدراج الباقية، لأن السيدة "س" نسيت ما بها. لم تعد قادرة على الانحناء لذلك كفت عن الاهتمام ولم تعد تنهر من يعث بمحتواها. قالت لنفسها منذ سنوات إنها طالما لم تعد تتذكر شيئاً فإنه حتماً ليس بالشئ المهم. فما ننساه يظل يدق في الدماغ بإزعاج لينبئنا أن علينا التذكر؛ لتظل ما بقي من عمرك تفتش عنه لكنك لا تجده أبداً.

أما الجدران، فبيضاء منقوشة برسومات حمراء صغيرة. لطالما وقفت أنا ملاصقاً لها في محاولة لاستخراج أشكال مختلفة. كانت كل الرسوم تشبه أحصنة البحر لكنها لم تكن مطابقة لأجسادها الضئيلة الدقيقة. كما أني لم أكن على علاقة جيدة بحصان البحر، لم أعرفه في طفولتي وبدالي كائننا بارداً لا يربطني به شيء. في كل زيارة كنت أحاول أن أفتش عن رسمة جديدة. رأيت العديد من العلامات الموسيقية والبط الصغير والورد البلدي المفتوح وأولاداً صاحكين أو بكائين. أصبح الأمر كتميمة حظ، ما أكتشفه في كل مرة قد ينعكس على يومي بأكمله.

حين تمر عليها تجدها لا تبالي، متفردة في وحدتها. تتحدث في كل شئ

لكنها لا تفصح عما تفكر. استيقظنا يوماً على جلبة شديدة، ثم شاهدنا أثاث شقتها كله بالشارع، يرفعه حاملون ويشبثونه على عربة كبيرة. حسبنا أنها ستنتقل لمكان آخر، لكنها لم تبرح مكانها. أبقّت على حجرتها. حاولت وضع نفسي مكانها، أن أبقى مع شباك جميل بإطلالة، أن أرثدي الفساتين الملونة الجميلة وأزين شعري بأمشاط صغيرة مزينة باللالئ، أن أنام فوق سرير جميل صنّع بالحب. أن أكون وحيداً تماماً فأدعو الجيران لأحكي حكايات.

عرضت السيدة حجرات شقتها للإيجار، كل حجرة على حدة. كان المقابل هو قبول دعوتها على كوب شاي بنعناع طازج أو على الغداء أحياناً وتركها تتحدث. لم تقل إن من حقها أن تعرض عليك ألبوم الصور أو حكي حكاية سريرها الصغير أو حتى التحدث عن الأحذية القديمة.

للحجرة بابان كما أشرت، كان يمكنك أن ترى حياتها من الباب الآخر كذلك، لكنك لن تستطيع الآن لأن المستأجر الجديد أغلقه بمزلاج كبير أما هي، السيدة "س"، فلا تغلق بابها أو شباكها على الإطلاق.

الأمانة

لم يكن بالقرية إلا محل حلوى وحيد، كسدت سوقه، فكان حجاج يتردد على المدينة من آن لآخر لجلب البسبوسة لأمه العجوز. لم تفتنه المدينة الكبيرة؛ كان يهاب شوارعها الواسعة المزدهمة. يستقل القطار صباحا ليصل إليها قبيل الظهيرة. وفي عشية سفره، يؤكد على سميح ألا يبرح الدار حتى عودته، ويطيعه سميح بالفعل طمعا في قطعة بسبوسة شهية.

يترجل من القطار ويتجه مباشرة إلى بوابة المحطة دون أن يوقفه شيء. يعبر الطريق للناصية المقابلة ثم ينعطف يسارا حيث متجر الحلوى الكبير، يشتري ما يحتاجه ويجلس على المقهى المجاور ليشرب "سحلب". ينطلق قطار الرجوع بعد ساعتين من وصول القطار الأول، فيعود إلى المحطة راضيا ومنها إلى أمه المنتظرة. يفعل ذلك في كل مرة كأنسان آلي مبرمجا بدقة هائلة.

في كل مرة تسأله أمه "هل قابلت الرجل؟" فيجيب بنعم. فتعاود السؤال "كما وصفته لك؟" فيومئ برأسه "كما في حلمك تماما".

لم يغير حجاج برنامج رحلته لأشهر عدة، منذ أن استيقظت أمه يوما وهي تطلب البسبوسة. كانت رؤيا، كما قالت. جاءها أبوها ومعه رجل أخبرها بأنه ينتظر بالمدينة ليعطيها قطع البسبوسة، أحضرها لها من صحن النبي. وقال إنها من الفردوس الأعلى، تذوقتها في الحال تبركا بالحبيب، ثم بدأت الرحلات ذهابا وإيابا إلى المدينة مثل رحلات حج مقدسة.

زارا معا الطبيب عندما تكررت الرؤى والطلبات الغريبة. رأت في بداية الشتاء بلحا نابتا على شجرة تفاح في مدخل القرية، ومضى حجاج يبحث عن البلح في غير أوانه حتى يعطيه لأمه. أوصى جميع التجار وبائعي الخضر والفواكه بالبلدة. كانوا يبحثون معه عن البلح رحمة بأمه وبه، حتى وجده أحد الباعة بصوبة في قرية مجاورة وباعه له بثمان غال، دعا ربه حينها ألا ترى أمه فاكهة إلا في أوانها.

تحدث معها الطبيب قليلا دون فحوصات ثم طلب منها الانتظار بالخارج. فهم منه حجاج أنها شيخوخة وأن ما تراه من رؤى غريبة من أعراضها وأن ما عليه سوى إراحتها. لذلك ينفذ أوامرها طالما في استطاعته دون مناقشات كثيرة.

لم يبحث عن الرجل بالمدينة، بل توجه مباشرة لمتجر الحلوى. وهل يعقل أن يقف شيخ وقور مثله في شارع عريض مزدحم باحثا عن رجل قصير من حلم أمه بيده لفائف حلوى.

وعلى الرغم من أنه يبدو له ضرباً من الجنون، لم يؤخر يوماً طلب أمه وإن كان يتذمر من حماقته بينه وبين نفسه أحياناً. حاول المساعدة في رواج سوق متجر الحلوى بالقرية حتى لا يضطر إلى الترحال للمدينة، لكنه لم يحرك ساكناً. وذات صباح، اصطحب سميح واشتريا كل ما في المتجر ثم فرقا كل الحلوى على الأطفال والمصلين في المساجد. كانت خطتهما هي إفراغ المتجر تماماً، حتى يضطر العاملون به إلى خبز وصنع حلوى جديدة طازجة، تستسيغها أمه وتعتقد أنها من صحن النبي. لكنهما عندما مرا على المتجر في صباح اليوم التالي، لم يجدا شيئاً. أخبرهما البائع أنهم لن يصنعوا المزيد إلا بقرب المولد النبوي الشريف.

فوض حجاج أمره إلى الله، واستمرت الرحلات المقدسة للمدينة لكن بخطى متثاقلة. إلى أن توقفت أمه عن طلب البسبوسة، زهدت فيها بعد أن شبت. وعاد حجاج مرة أخرى إلى الانتظام في عمله بالمدرسة المجاورة. لم يكن حجاج حارس المدرسة فحسب، بل كان شيخها أيضاً. يجتمع التلاميذ حوله بعد انتهاء اليوم الدراسي، فيسرد لهم القصص القصيرة من القرآن بصوته الرفيع الذي يثير سخريتهم، لكنهم في النهاية كانوا يفضلونه عن كل أساتذتهم ويقضون كثيراً من الوقت بصحبته.

لم يكن حجاج يدرك أنه سيفتقد رحلاته القصيرة للمدينة، غير أنه وجد نفسه يحكي لتلاميذه عنها وعن السحلب الساخن اللذيذ الذي

لم يذق مثله في أي مقهى من مقاهي القرية. كما حكى فاروق، أحد التلاميذ، عن رحلة أخيه الأخيرة إلى المدينة، وعن زيارته للسيرك الكبير هناك. كان منبهرا بالسلاسل الطويلة التي يتعلق بها اللاعب ويقفز. وصمت الجميع حينما بدأ في وصف فقرة الأسد، فأخبرهم بأن الأسد رفض طاعة مدربه الذي قام بضربه كثيرا بالسياط. لكنهم لم يصدقوه وطلبوا منه الكف عن الكذب فليس في وسع أحد ضرب أسد كل هذا الضرب الشديد. ثم بدأوا التعارك بالأيدي.

في فجر إحدى الليالي، وبعد أن فرغا من الصلاة، نادته أمه، وأمرته بالذهاب للمدينة في قطار اليوم، ليقابل الرجل في الحي الكبير ليستلم منه أمتارا من الحرير، حرير أرسله لها أبوها من عند الحبيب. لم يستطع حجاج أن يجيبها لبرهة، لجمت المفاجأة لسانه ووقف مسمرا في مكانه. سألتها باقتضاب "هل هذا حلم أيضا؟". حكى له عما رآته قبل آذان الفجر مباشرة، كان والدها بشوشا منير الوجه، بيده أمتار من القماش المزخرف الجميل، وقال لها إن النبي يرسل لها تحياته ويبشرها بالجنة ويرسل لها هذه الهدية حتى يحين اللقاء. ثم أمرها بأن يذهب حجاج لجلبها من المدينة.

فكر حجاج أن أمه في طريقها للجنون، وأنه لا بد أن يصطحبها معه للمدينة ليراها طبيب أكثر خبرة. تأزم الأمر تماما، في البداية كان يشتري البسبوسة لرخص ثمنها وسهولة الحصول عليها، لكنه الآن مضطر إلى

شراء الحرير أيضا. مضطر للبحث عنه وتوفير نفقات خاصة له. دعا الله كثيرا ألا يتكرر الحلم، أن تتوقف أمه عن رؤية الأحلام تماما. لقد لقي منها عرق الجبين.

لكنه على أي حال استغفر الله وعزم أمره. أملت عليه أمه عنوان ولي الله كما قيل في المنام، وبعد استدعاء سميح، انطلق إلى محطة القطار. مسبحا بحمده ومكبرا.

كان الحي الكبير يتعد قليلاً عن محطة القطار بالمدينة، وكان الوقت ضيقاً، ساعتان باقيتان ليلحق بالقطار التالي عائداً للقرية. فخرج سريعا من المحطة، يتلفت حوله في حذر باحثا عن سيارة أجرة لتختصر عليه الطريق. كان المكان مزدحما بشدة، لم يلحظ حجاج هذا من قبل لأنه لم يضطر يوما إلى انتظار ما يُقله. التصقت الأتربة بجلبابه ولحيته القصيرة وأدمعت عيناه مما جعله يهرع إلى أول سيارة خالية من الركاب وهو يسمي الله. سبقه إليها رجل بصحبة طفل، كاد أن يُدهس الطفل تحت قدميه ليلحق بالسيارة. لكن حجاج لم يتوقف، واستمر في تقدمه نحو السائق. حتى كادا أن يتشاجرا على من له الأحقية في الركوب. فض السائق الاشتباك وحسم الموقف عندما علم أن ثلاثتهم ذاهبون لنفس الحي، فاقترح عليهم أن يركبوا جميعا.

في السيارة، تحول الغضب لضحكات وتعارف سريعا. بالطبع لم يبع

حجاج عن سبب قدومه للمدينة، اكتفى بالقول إنه جاء ليقضي بعض المصالح. قال الرجل إنه قادم من أجل طفله، فلقد وعده بالذهاب إلى السيرك المنصوب بالحي الكبير. قال لـ حجاج: "حاول أن تأتي يا شيخ، رَوِّح عن قلبك ساعة". هز حجاج رأسه في تفهم ولم يجب.

لوهلة، اجتاحت حجاج فكرة السيرك. لم يأت السيرك إلى القرية منذ سنوات، لكنه ما زال يتذكر زيارته الأخيرة له. برق المشهد برأسه، هكذا روى عنه لأصدقائه على المقهى يوما ما:

- ثم جاء المهرجون، رجлан وفتاة جميلة لا ترتدي إلا القليل من الملابس. لعبوا وضحكوا كثيرا، والضوء يتراقص من حولهم ويزغل نظري. كانت هناك حلقة مفرغة معلقة في يمين المسرح، تعلقت بها الفتاة بخفة، وتسلمت الأضواء القوية من خلفها على جسدها. فلم يظهر منها إلا ظلال تتقاطع مع الضوء طوال العرض في خطوط طولية وعرضية، فيما الموسيقى العالية تتسابق مع صيحات الجمهور للأذان. تكور جسدها اللدن داخل الحلقة مكونا حلقة داخلية أخرى بها نتوءات بارزة. تركت يديها تتراقصان في الهواء، ثم تعلقت بقدميها كخفاش وشعرها الطويل ينزلق أسفلها. لم أر ملامحها بوضوح لشدة الضوء الضارب في عيني، لكني متأكد أنها كانت تبكي بحزن وجسدها يتلون كحرباء داخل الحلقة. في الحقيقة، هي أجمل ما رأيته يوما.

اختلج صدغه وجمحت عيناه، كان منفعلا. هكذا ظل إحساسه بها لسنوات، حتى إنها طارده في أحلامه طويلا. تبكي بصمت وتتلوى، داخل إطار شباك حجرته، وفي المساحة الصغيرة أسفل سريره، وبين أغصان الأشجار التي تطل على التربة التي تشق قريته. دائما تتلوى وتتكور وشعرها يتراقص حولها، والضوء في الخلفية يزغلل عينيه.

وصلوا للمبتغى. ترك الرجل يترجل مع ولده أمامه، ثم تبع خطواته. كان السيرك قائما في الناحية الأخرى من الطريق. بوابته صغيرة ضيقة كفرج امرأة، لكنه يفتح على عالم آخر. لافتته كبيرة، يزينها أضواء حمراء تخطف البصر. طالت وقفته كأنها ينتظر شيئا، كان يصارع طفلا بداخله يتوق للخروج.

أشرق رجل ضخم رغم قصره، سار محاذيا لسور السيرك. ثم عبر الشارع دون انتظار مرور السيارات. لم يره حجاج في البداية، لكن لاحظته حين أربك الطريق. تقدم ناحيته مباشرة، ووقف في مواجهته. كان يتصبب عرقا ويعرقه اللهاث عن الحديث. حسبه حجاج محتاجا فأوشك على صرفه لكنه لحقه وسأله إن كان هو الشيخ حجاج. ذهل حجاج ولم يرد إلا بعد صمت وبياهة من رأسه. فرد الرجل بصوت خفيض معاتبا "أين كنت؟ لقد طفت المدينة من شرقها لغربها! هذه أمانتك".

سلمه اللفافة ثم عبر الطريق مرة أخرى دون تباطؤ وذاب في الزحام.

بهت حجاج. اللفافة الكبيرة بيده وعيناه زائغتان. لا يعرف أين يذهب أو ماذا سيقول. بحث سريعاً عن ملاذ ليرى ما بداخل اللفافة. وعلى بعد أمتار، جلس بين شجرتين ووجهه للحائط. تنهد بعمق ليهدأ. وما إن سكنت أنفاسه، حتى فتح اللفافة وهو يسمي الله بخفوت، كان بها أمتار من قماش مزخرف وقطع بسبوسة صغيرة، مقطعة بشكل متساو ومرصوفة في طبق أبيض جميل النقوش، كُتبت على أطرافه "الله أكبر".

الطاووس

الدخان يتراقص بوهن، صاعداً من عود بخور كشبح لا يجد مخرجاً إلى العالم الآخر. تأملت هناء بأعين منتفخة مرهقة، حياته القصيرة المحترقة ثم ذوبانه وتماهيه التام مع طبقات الهواء المعلقة بالسقف. حتى كادت الغرفة تختنق به، فظنت هناء لو هلة أنها تحلق بين سحب كثيفة ولم تعد ترى شيئاً. لم تكن الغرفة كبيرة، ولكنها ذات جدران عالية وألوان هادئة بين الأزرق والبنفسجي. ذكرها ضعف الإضاءة بحجرات الأطباء النفسيين. في منتصف الجدار المقابل للباب، لوحة وحيدة يغلب عليها الأصفر، لم تتين محتواها في البداية جيداً لحكة في أسفل جفونها المنتفخة. وفي الركن مكتبة صغيرة بها بعض الكتب المهترئة. كانت غرفة خالية من الأثاث فيما عدا ثلاثة كراسٍ ومنضدة دائرية حديد بالمنتصف.

عادت المرأة إلى الغرفة بفم مفتوح، فيما تخيلت هناء أنها تأخرت لترتدي السوتيان، لكنها لم تفعل. أكدت المرأة عليها أن من الأفضل ألا يعلم أحد بقدمها إلى هذا المكان، وأن الإعلان كان قديماً للغاية، وأنها استجابت لها

لسوء الوضع. فأجابت هناء بهمهمات توضح أنها متفهمة.

لم تكن هناء تحسم تردها أبداً حيال أي شيء، لذلك ترددت كثيراً في البداية قبل أن تطرق الباب ذا الرسوم الدائرية البارزة الخالية من أي ملمح يدل على ما خلفه. طالت وقفتها، حتى استطاعت أخيراً التقدم، فانفتح الباب بعد برهة وظهرت المرأة الخمرية بوجهها المستدير المبتسم، فقابلته هناء بوجوم وقلق، ثم حاولت أن تتذكر سريعاً اسم الجريدة التي وجدت الإعلان بها، ولكن المرأة بادرتها السؤال.

- مدام هناء؟

انفرج الباب ودعتها المرأة للدخول في بشاشة. كانت ترتدي فستاناً قصيراً فوشياً يكشف فخذيها الممتلئين بابتذال، فاستطاعت هناء رؤية الدهون المتراكمة في أعلى فخذيها ترتج بينما تسير أمامها إلى ما بدا لها غرفة الاستقبال. وفكرت أن برغم كل هذه الدهون، إلا إنها تحمل مؤخرة مثيرة، ويبدو إنها تعرف أهمية ذلك.

وصلتا لباب الغرفة، ووقفت المرأة قبالتها بكامل جسدها لأول مرة. لم تكن ترتدي سوتياً، فقالت هناء بلا وعي، زوجي في طريقه إلى هنا. فأجابت المرأة بأنها بالطبع تعرف ذلك وأن الدعوة كانت لهما معاً. النهدان الصغيران كانا يهتران مع كل حرف تتفوه به، وشعرت هناء برغبة ملحّة في اعتصارهما بقوة كثرقي ليمون طريتين.

دعتها المرأة للجلوس، وفور جلوسها، لاحظت هناء باباً قصيراً بجانب المكتبة في أقصى الغرفة، مطلياً بنفس لون الجدار، فكان مختفياً. وثبت من مكانها تبحث عن ققط أسفل قدميها وقالت إنها تخشى الققط كثيراً وإنها بالتأكيد تدخل وتخرج من هذا الباب. فضحكت المرأة، ثم طمأنتها أنه هنا لأغراض أخرى.

صمتت هناء وجلستا أخيراً متجاورتين، وذهبت عنها أفكارها لبرهة، حتى إنها اجتهدت لتتذكر سبب قدومها لهذا المكان. ثم لاح الإعلان الصغير في الجريدة بالأفق، وتذكرت أنها جاءت بعد إلحاح كثير حتى وافق زوجها الذي لم يتحمس في البداية، وأبدى ضيقه من رغبتها. ولكنها لم تستسلم كما اعتادوا زداد إلحاحها، ثم ما إن طفح بها الكيل حتى بدأت في إطلاق التهديدات. فانصاع كرها وبطنه المنتفخ يئن.

لم تنتظر هناء حتى تبدأ المرأة حديثها، وقالت برجاء:

- مش عايزه أسمع نهنته بالليل تاني!

- أكيد ده بيزيد توترك.

- بيخليني أكره إني ست.

نظرت لها المرأة في تفهم وربت على كتفها. بدأت الحكمة في جفونها تزيد، وضاق تنفسها. رفعت رقبتها لإيجاد المزيد من الهواء وسط هذا

الدخان الكثيف، فرأت السقف أسود. جعلها هذا تنتبه بشدة إلى ثقل الليل على أعصابها لسنوات.

وصل الزوج حسب الميعاد المتفق عليه، وجهه جامد خال من التعبيرات. عرفت هناء أنه لا يزال مصدوماً من فكرة قدومه. فكرت أن تهدئ من روعه ولكنها تراجعته وتركته ليوافقه الموقف بمفرده. اهتز صدر المرأة بقوة وهي تقف لترحب به، فأجابها بكلمات مبهمّة مقتضبة. ثم جلس بجانب هناء، وسحب سيجارة من علبة فاخرة بجيب بدلتة. وبعد أن التحم دخان سجائره بالسحب الكثيفة، وصارت أكثر ثقلاً، بدأ الحديث:

- أنتِ شغالة هنا لو حدك؟

- النهاردة بس، مساعدتي في أجازة.

فردّ ساخراً:

- شكلك بتحبّي تساعدي الناس.

نظرت المرأة إليه طويلاً، تفرست في ملامحه وضافت عيناها الواسعتان. ثم فتحت فمها ربما لتعترض ولكنها أطبقته مرة أخرى. وأدارت وجهها ناحية هناء التي أغلقت عينيها تماماً وأسندت رأسها على يديها. فقالت المرأة بعد برهة في محاولة لتهدئة الأجواء:

- إحنا هنا علشان نتكلم شوية مع بعض.

- اللي أعرفه إني هنا علشان أثبت لك رجولتي!

ثم وقف وفك حزام سرواله في هدوء وفتح زر بنطلونه، وأنزل ملابسه حتى ركبتيه، ثم مسك عضوه الضخم وقال بهدوء:

- شايفه ده؟ شغال كويس وممكن تسألها!

وأشار إلي زوجته التي بدا عليها الغضب، فنظرت لها المرأة متسائلة:

- الكلام ده صحيح؟

فأجابت بحدة:

- جربي لو عايزه!

سكن المشهد تماما حتى ارتدى الزوج ملابسه مرة أخرى. وتحول ببصره في الغرفة وهو يزوم بأصوات خافتة كمن يلقي تعويذة لا أصل لها. ثم وقف أمام اللوحة(*) الوحيدة وحقق بها طويلا. ولما طال وقوفه، نغز الفضول هناء، فتبعته ووقفت خلف كتفه الأيسر تحديق بدورها وكأنها مفتاح السر. كانت لوحة جرداء وتبدو السماء شاحبة في أعلاها بخطوط زرقاء باهتة وكأن الليل داهمها على عجل. وفي أقصى الشمال عين تنبثق من السماء وتُشرف على الحياة بشفقة. أسفل اللوحة شيء يشبه آلة موسيقية

(*) لوحة الديك والطاووس للفنان حامد ندا.

لم تعد تصدر منها الأصوات، يقف فوقها ديك يحاول الطيران. وبأسفل الآلة الموسيقية، عين مرسومة بعناية بأزرق يشبه كحل النسوة من الصعيد، عين ميتة بلا روح.

يسير أكل النمل في اليمين هدهود ولا وجود لنمل في طريقه. وأعلاه تنام سيدة ممتلئة الفخذين ذات مؤخرة مثيرة، وصدر صغير يشبه ثمرتي الليمون، عارية، تستحم بضوء شمس غير مرئي ولا تكتثر لشيء. بجوارها امرأة طويلة نحيفة، جافة العود. قسمتها الرغبة من الخصر بالغ الرقة وامتدت ذراعاها على الرمال وساقاها منفرجتان. وبينما يقبع فوقها طاووس عملاق طويل الذيل ويلتهمها بمنقاره الكبير، انعكس ظلّه صغيراً كدجاجة فوق الرمال. وفي عمق اللوحة، أسفل السماء، بيوت بعيدة، لا تدري شيئاً عن هذه البقعة من العالم.

قبل أن تشيح هناء بنظرها، لمحت فراشة شاحبة كرماد حريق تطير بجانب رأس الديك، فاشتدّ ثقل الجفون الملتهبة ورأت نارا تشب في أكل النمل والدخان الأسود يتطاير، وينتشر حول السحب الكثيفة، ساحبا إياها إلى الأسفل لتهطل الأمطار. في تلك اللحظة، تصاعدت موسيقى من الآلة بالتدرّج، حتى صمت الأذان. سحبت الطاولة الحديدية ورفعتها بسرعة، وهوت بها على رأس زوجها بعنف. تبعثها بعدة ضربات بعد سقوطه أرضاً.

وقفت المرأة دون اندهاش، وقامت بسحب الجثة معاً إلى داخل جوف الباب القصير، ثم أغلقت الباب بقفل ثقيل. ثم غرقا معاً فوق السجادة التي كادت تشبع بالدماء، ويذا هناء تعصرا نهديّ المرأة كثمرتي ليمون، وتتأوه بشراسة.

الرأس الذي كُشِفَ غطاؤه

جاءتني يدٌ بعود أخضر طويل، كشجرة صغيرة تشبه عود "الشَّبْت" على جانبيها براعم. تذكرت وروداً أزرعتها حين كنت طفلاً، كانت تزهر لأسبوع فحسب ثم تذبل وتموت. طالت الشجرة فجأة. وصارت ضخمة حتى لامست السحب بأطرافها، وتفتحت البراعم. هطلت السماء في النهاية. كان كل شيء رائقاً تماماً. وامتزجت حبات المطر بسيمفونية كونية انبعثت من كل مكان. فلَوَّحْتُ بالشجرة وداعبت المطر مراهنًا على ساقها القوية التي لن تنهيا الرياح.

أيقظتني حركة الرأس الصاخبة. كان يقفز بجانبي لأعلى وأسفل في مرح بينما المطر في الخارج ينهمر بشدة. تطرق قطراته على نافذتي في رتابة. تَمَطَّيْتُ والموسيقى لا تزال تتردد في أذني. حين انشغلت عن الرأس، هداً صخبه وتدحرج مستقراً بجانبي. ثم نظرتي متسائلاً إن كنت سأخرج الليلة، لم أجب وأشرت بصمت للسماء. فسكن تماماً. أغمض عينيهِ وانتظمت أنفاسه.

نحيت الأغطية جانبا ونهضت لأفتح النافذة بعد توقف المطر. النافذة تطل على ميدان صغير يتوسط الحي القديم، في وسطه نافورة لا تعمل، مغمورة الآن بالمياه والأتربة، والقمامات تسبح مزاحمة. يجلس عبد العاطي على حافتها، وقبلته سيد جوخة. يتبادلان "جوينت" في هدوء. هز عبد العاطي إصبعيه اللذين يضمنان السيجارة في حركات دائرية متصاعدة. ثم أطلق الدخان في الهواء وأطبق فمه. أظن أن إبقاء الفم مغلق مع ارتفاع رأسينا، هو ما يمنع الروح من الرحيل. إذا ترك عبد العاطي فكه الأسفل للجاذبية، قد يخلق بحرية مثل دخانه الأزرق.

سار سيد جوخة فتعلق عبد العاطي برقبته، وكأنه متكئ على عصا. كان عبد العاطي طويلا، له رأس مربع وشعر أشعث. يرتدي تي شيرت أخضر في الصيف، رافعا كميهِ القصيرين حتى كتفيه. يظهر أسفلهما ذراعيه الهزيلتين. يبقى بالفانلة حين يغسلها. وفي الشتاء يزيده بستره سوداء باهتة. لم يعد يعرفه أحد. كبر الأطفال وتوقفوا عن العدو في الشوارع لمشاهدة موكبه.

أغلقت النافذة وارتديت سترتي السوداء الشاحبة. حرصت على التحرك بهدوء حتى لا أوقظ الرأس النائم. لقد اعتدت وجوده في الحجرة، وآلفت التحدث إليه بصوت مرتفع، بالرغم من أنه لا يتكلم. تَكُونْ لَدَيَّ شعور أنه سينطق قريبا بعد امتصاص كل المفردات مثل الأطفال.

كان يوما حارا حين سمعت صوتا غريبا في دولابي، والعرق كان غزيرا فوق جبيني والصهد شديدا. في البداية ظننته فأرا متسللا، لكن عندما فتحت الدولاب، وجدتُ رأسًا جاحظ العينين يحدق فيّ من الداخل. كان خائفا وينظر إليّ في دعر واللعب يسيل من فمه. ترويت قليلا وأنا أحك جبيني بظهر يدي، متسائلا: من ترك رأسه في دولابي هكذا؟ بدأت أفتش عن الجسد في كل مكان. وعندما لم أتوصل لشيء قلت له بوضوح: إذا أردت البقاء فلتبق، أما إذا وجدت جسدك فلترحل؛ لأنني لن أتحملكما معا. تخلّى عن قلقه وقفز حولي متبسما ثم لعق قدمي. فكرت في نفسي أنني لطلما رغبت في شراء حيوان صغير، لم يخطر ببالي قط إمكانية صحبة رأس إنسان أليف.

انتبه الرأس لحركتي فتدحرج إليّ. أخبرته: بأني ذاهب لاحتساء الشاي مع عبد العاطي بالمقهى. تهللت أساريه فَرَبَّتْ على شعره القصير.

تبادلت الحديث مع عبد العاطي عدة مرات قبل دخوله السجن. حتى أنني دعوته مرارا لزيارتي بحجرتي الصغيرة. لفتت انتباهه كتبُ الشعر المرصوفة بجانب فراشي. فأخبرته أنها كل ما بقى من زمن مضى. هزّ رأسه المربع، وهرش شعره الأشعث قليلا ولم يرد. لكننا توقفنا عن الحديث بعد عودته. سمعت أنه واجه اغتصاباً ما بالسجن، فانسحبت بلطف. انشغل هو بأسر الدخان الأزرق، بينما أهدد أنا رأسًا مذعورًا بلا جسد.

يستحق الأمر العناء. فعبد العاطي صديق قديم يعرف كيف يكسر ملل الليالي الباردة. رغب الرأس في صحبتي. تدرج نحو الباب ورفض الابتعاد حين أمرته. كان الاستسلام هو الحل، وإلا سأقضي الليل بجواره.

توقفنا بمدخل البيت، أرهف السمع. لا صوت سوى دويّ الرياح. أحكمت سترتي على صدري وتابعت طريقي. وبجانبى الرأس يقفز على الرصيف. فاض ماء النافورة بعد عصف الرياح بالأتربة الطافية فوقها، فنزحت للأطراف تسابقها القمامات، تاركة الماء صافياً بالمنتصف.

خطوت على أطراف أصابعي كلاعب باليه. أقفز من حين لآخر لأنفادى البرك الموحلة. أضع يديّ بجيبيّ طالبا دفئا عزيزا، متسللا بأصابعي عبر ثقب سوداء لجيوب الآخرين، علّني أجد عدة جنيهاً أو مكسرات مملحة تؤنس طريقي. عثرت على بضع أصابع من الطباشير الأبيض وبقايا أظافر عارية من الطلاء. وقلنسوة صغيرة حشرت الرأس بها. ألقيت الأظافر واحتفظت بالطباشير. وفي جيبي الآخر استطعت التسلّل لجيب به مطواة صغيرة وكشاف يد.

معاً انعطفنا يميناً لشارع طويل وضيق. والرأس يقفز حولي. تتراص البيوت المتهالكة على الجانبين، قديمة ومثيرة للشفقة. كانت كأجساد قصيرة عجوز لاعها الحزن من ثقل الانتظار. أمسكت الرأس ورفعتُه لأعلى أمام صدري. وأشرت له نحو بيتٍ يحتلّ ناصية، على واجهته مصباح

"سهارى". كانت طوابقه مضطربة. أكلت الوسائس نوافذه العريضة، وأجهدت الشُّنُونُ طوابقه.

حَلَقْتُ فوق رأسي كلماتٍ مبعثرة ليبت شعر قرأته منذ أيام. فاقتربتُ من البيت والأفكار تراحمني. وضعت الرأس أرضاً ومسكتُ الطباشير. كتبت على الطلاء الأصفر المتهاالك متشككا في قدرة ذاكرتي المثقوبة "أعوذ بك أن تمسك أي لوعة ويوسوس لك الوسواس مطرح ما تكون".

ازداد الشارع ضيقاً واشتدَّت الظلمة. لم أعد أرى وقع خطواتي. وابتعد عني الرأس يقفز بالقرب من جدران البيوت باحثاً عن أرض جافة يتدحرج فوقها. تركت لحذائي الأمر. تحمّل رعونتي وأنا أخطو في ماء المطر. سيلعق الوحل بلسانه القصير كقط حين أنتهي. فحذائي يعرفني، يربت على أصابع قدمي المتوترة. يترك لها المساحة لتتكشم وتمدد في ترقُب. كيف سيتقبلني عبد العاطي؟

أهانته لوعة الضيق بالسجن. لم يكن سوى صعلوك صغير، يقف على النواصي وسط الدخان الأزرق الدائري الذي يتداخل لأنفه. يحفظ الشتائم القذرة ليضايق البنات. كان صاحباً فحسب كصخرة تتلوى أمعاؤها، فتتقيأ حمماً بركانية تزعج الجميع. لم يكن إلا طفلاً في حاجة إلى من يلقي الشعر على مسامعه.

انعطفت يسارًا حيث الزريبة الكبيرة. وحده خوار ثور ساهر حزين
يشاركني أفكارى. ربما جزع أيضا. حلقت الكلمات مجدداً فوق رأسي.
اقتربت من الحائط لأكتب بيت الشعر من جديد. كان الشعر هذه المرة
أكثر وضوحاً. أمسكت الطباشير وكتبت "أعوذ من الوسوس أن تمسك
بك لوعة مطرح ما تكون".

على مقربة مني، على بُعد عدة أمتار قليلة، يقف شبح ضخم أسود يتأمل
الحائط. تحسست مطواتي الصغيرة بحذر، فلم أجدها. مارست تسليي لحيوب
أخرى. وضع الشبح الأسود يده بجيبه أيضا. لمست أصابعي أصابع دافئة
متسللة، فانسحبت سريعا. نظرت حولي باحثا عن الرأس. كان يقفز بالقرب
من الشبح. فكرت ربما كان صديقا لجسده يوما ما. وأن هذه المغامرة الليلية
المباغته كانت سببا في معرفة أصل الرأس.

ابتعدت عن الحائط ومشيت قليلا. اقتربت قفزات الرأس مني مرة
أخرى. نظرت خلفي فجأة، فوجدت الشبح يسير ورائي.

وقفت...

فوقف.

مشيت...

فمشي.

هل يتبع الرأس أم يتبعني؟ هل لديه ثقب في جيبه أيضا وتسلك منها إلى سارقا مطواقي؟ اقتربت من الرأس لأحمله، لكنه ابتعد عني بخفة. لم أتبين تعابير ملامحه جيدا. لا أعرف إن كان فرحا بالرفيق الجديد أم لا. أهملته، وفكرت في أنه إن كان خائفا فسيأتي بالقرب من قدمي. لكن مرت بي وساوسي. أعرف عبد العاطي أتي في طريقي إليه، وأراد المزاح معي؟ على أي حال لست قلقا. أنا صديق قديم يريد كوبا من الشاي الساخن في تلك الليلة الباردة فحسب.

وقفت مرة أخرى لأنظر للرأس. فكرت أنها قد تكون النظرة الأخيرة قبل الوداع. ثم واصلت المشي حائرا لا أجد تفسير الرفض الرأس لي. فمنذ أن وجدته بالدولاب ونحن حريصان على بعضنا البعض. ظننت أنه يجني.

لاحظت بعد قليل أن الشبح يحافظ على ثبات المسافة بيننا. اقتربت من الحائط، فاقترب كذلك. لم أحاول محادثته، بقائي مع الرأس لفترة طويلة علمني التواصل بدون كلام. كان الأمر كما لو أتي أنظر في مرآة ضخمة. شبح أسود ضخم كهيتي ويرتدي سترة سوداء شاحبة.

دخلت السوق الكبير. تسلك ضوء ضعيف من متجر ساهر. غمرني الضوء بينما ظل الشبح في ظلال البيوت. يتكسر الضوء على سترته ولا يصل لوجهه. والرأس يقفز جيئة وذهابا بيننا. أسرعت الخطى وانعطفت يمينا

ثم يسارا مرة أخرى اختصارا للطريق كغرزة سريعة بين طيات ثوب.

الشارع هنا أكثر رحابة. يقطعه بالنهاية طريق عريض على ناصيته سنترال الحي. الشبح الأسود يتبعني والرأس يلعب في المنعطفات. اعتدت في المواقف التي لا يمكن التحكم فيها التظاهر بعدم الاهتمام. لذلك تجاهلتها عندما أدركت أن ثمة لعبة ما تُنسج وراء ظهري. بينما تبحث أصابعي عن مطواة بجيبي. تبعثرت فوق رأسي حروف كلمة "تبريح"، لقد سقطت من البيت الذي كتبته. زاد توترتي. تداخلت الكلمات برأسي، فلم أعد أتذكرها. كما انصهرت ملامح الرأس، حاولت التركيز، كيف كانت أنفه؟ لطالما اعتقدت أن الأنف هي أهم عضو في الوجه؛ لأنها مَرَكْزُه.

وقفت بجانب سور السنترال والطباشيرة بيدي. أدبر مكاناً لتبريح التي سقطت من ذاكرتي. يقترب الشبح من الحائط أيضا. تُرى هل وجد مكانا لها؟. وقفت قليلا أنظر للحائط وأنف الرأس يتراقص بين جفوني. كنت موشكا على الجنون، وقررت مشاركتها اللعب لتهداً وساوسي.

مددت ذراعيَّ أمامي مستندا إلى الحائط. ثم اندفعت جريا للوراء ورفعتهما لأعلى. فعل الشبح مثلما فعلت تماما. جريت عائدا للحائط. فعاد. كررت ما فعلته عدة مرات وزدت من سرعتي حتى أني لم أعد قادرا على التنفس، فجلست على الرصيف لاهثا وتتقاطع ضحكاتي من بين أنفاسي. ضحكنا معاً وتمايلنا. تمددت الحروف بيننا كموجة صوتية تهتز برفق مع الرياح

وترتج كلما صخبنا. والرأس يقفز بيننا ككرة لعب.

انعطفنا يمينا مع سور السنترال والرأس يسبقنا قافزا في خطوات واسعة. ظهرت الساحة الخارجية حيث يقضي عبد العاطي ليليه. هادئة، خالية من أي مقهى. وقفت بالمنتصف حائرا هارشا رأسي المربع. وقف الشبح أمامي فانسل الضوء لوجهه. كان عبد العاطي نفسه، ممسكا بيده طباشيرة بيضاء وبيده الأخرى عودا أخضر طويلا. سكنتُ برهةً. ثم نظرتُ لصدري العريض ورأيت تي شيرتا أخضر أسفل سترتي السوداء الباهتة. سكن الرأس بيننا. وتجلّى بجانبه جسدٌ قصيرٌ منحنيٌّ للأمام، فالتحم الرأس معه. عادت نظرتُه المذعورة ولعابه السائل على الأرض. وقف خلفه رجلٌ ضخْمٌ مُدْخِلاً عضوه في مؤخرته بانتشاء وعنف. تناثرت وساوسي في الهواء وسقطت فوق جسد المُغْتَصَب كسكاكين صغيرة. رفع ذراعه بسرعة ليحتمي رأسه، فانفلت عضوه. لم يتردد صاحبُ الرأس، نهض وجرى مسرعا. كان مشهدا باهتا، استمر في البهتان حتى تلاشى، واختفى تماما. بقيت بمفردي مع نفسي، شعرت بها رغم أنني لم أستطع رفع رأسي لأرى بوضوح. دارت الأرض تحت قدمينا ورجف جسدي.

طاقت عينا في الهواء غير عابئة بمجال رؤيتها. واصطففت أسناني كرصيف حجري، وضروسي سُلماً. أنا بجانبي. نصعد السلم المرتفع. من شرفة كبيرة بنهايته، نرى جسدينا داخل جسد طفل يحمل الرأس الأليف.

طفل حليق قسماته مطمئنة، يرتدي جلباباً أحمر كالرهبان البوذيين. ويدور
منتشياً فوق نهر. يده ممدودتان لأعلى في سعادة، مستقبلاً أوراق شجر
متساقطة من السماء. وكلمات مبعثرة تدور حوله. قرأناها جميعاً بصوت
جهوري:

"أَعِيذُكَ أَنْ تُنْمَى بِتَبْرِيحٍ لَوْعَةٍ وَأَنْ تَعْرِفَ الْوَسْوَاسَ كَيْفَ يَكُونُ(*)".

(*) بيت للشاعر إبراهيم المازني.

حصاد السافانا

كان على منصور التسلل مرة أخرى في طريقه للعودة، ولم تكن بنفس صعوبة الرحيل، إنما أشبه بالعموم مع تيار شديد في ليلة مقمرة. الطريق أقصر، السحب أقرب والصحراء أقل اتساعاً ورمالها مطفأة شحيحة، لا تعكس الكثير من نور السماء.

كان قد اتفق على تسوية جيدة مع مديره، حين وصلته الأخبار الأخيرة عن اشتداد مرض أبيه. لكنه في النهاية حسم تروده واضطر إلى الرجوع، وكان يظن أنه لن يحدث أبداً. كان يدرك أنه أصبح وحده مسؤولاً عن أخين صغيرين. تذكر هيتتهما وبصق تراباً صحراوياً لم يلبث أن عاد إلى عينيه وأنفه، فالزوبعات مصاحبة له طوال الطريق.

دخل القرية لا يعرفه أحد، وإن كانوا يلوكون سيرته من حين إلى آخر. تمكن من تذكر طريق البيت الذي تركه كهفاً مسقوفاً بالصفائح. المعالم تبدلت، فالعشش الخشبية انهارت وتحول بعضها إلى بيوت صغيرة مزودة بدكاكين لا تبيع شيئاً. وقف قليلاً أمام الباب وحلقه الجاف يخمشه التراب

الأصفر. كان الزير ما يزال في مكانه القديم، فنهل منه الماء، ثم تجشأ وطرق الباب.

لم يتوقع أخواه قدومه بالفعل، لذلك لم يكثرث فؤاد لعزم سامي مراسلته بشأن احتضار والدهم، لكنه لم يُخفِ اندهاشه حين رآه، حتى أنه احتضنه باشتياق بدا له حقيقياً. كانا قد عادا لتوَّهما من المقابر ومعهما النسوة مُتَشِّحات بسواد باهت، والرجال مطرقون بما يليق بالمناسبة. سار بينهم كأقرب غريب عرفوه يوماً، منصور نفسه لم يشعر بالألفة نحوهم، لكنه رَحَّب بنظراتهم الممتنة له. بطل فتح لهم أبواباً ثابتة حين تسلل عبر الصحراء لأول مرة منذ سنوات. جلس وسطهم، ومن زاويته بالردهة راقب أخويه. لم يعتقد أنهما قد شبَّا هكذا. طال فؤاد وصار ضخماً مثله، على عكس سامي الذي بقي ضعيف البنية.

ظل يلحق سقف حلقه بلسانه طوال العزاء، كان الترابُ الصحراوي ما زال عالقاً هناك، رغم الماء الكثير والبصق. لم يتوقع الناس عزاءً تقليدياً، خصوصاً بعد قدوم منصور، فترقبوا حديثه، لكنه لم يتكلم أو يُشير لأي شيء. لم يكن محباً لصحبة الناس، وزادته الغربة عُزلة، كما أن اجترار الذكريات فكرة مثيرة لغثيانه.

أرض القرية الترابية أبقت جراح حلقه مفتوحة، وجعلته لا يكف عن لعقها بطرف لسانه. كان يرى التراب والدخان في كل مكان حوله، والبيوت

الرمادية العفنة تلاحقه. لم يرها هكذا قديماً، لكنه حين خرج لبلاد أخرى ملونة أدرك مدى عمق الرماد المصاحب لها.

انتهى العزاء وانصرف الجميع أخيراً. فأغلق منصور الباب وتعمّد إغلاق غرفة والده كذلك، كأنه يهرب من ذكره ويتنصّل من الحزن. تزداد الحياة التباساً هنا، كأنها سلاسل متصلة خيط وسط نسيج مُعقّد. حين رحل كان ينوي العودة، لكن في كل يوم صحا فيه هناك، بعيداً، كان يدرك أن نيته لم تكن صادقة بشكل كافٍ لتكون وعداً حتى لنفسه. فاكتمى بإرسال ما بقي منه ليسكن صوته الداخلي من وقت لآخر.

جلس متوسطاً أخويه مشحوناً بخيالاته. يسألها عن أحوالها. كان فؤاد يرد باقتضاب بينما انطلق سامي في الحديث. وبعد جلسات مصغرة بينهم قال لهما إنه لن يضره شيء إن رحلا معه.

تردد فؤاد في قراره، في الوقت الذي حسم سامي موقفه وأعلن أنه سيرحل مع منصور. لم يتبق لهما شيء في القرية، فلا أهل مقربون ولا حب مرتقب ولا سماء يتطلعان إليها، سوى دخان ثقيل يحوم حول رأسيهما.

بدأ منصور في إعداد كل شيء لعبور الصحراء والتسلل عبر الحدود من جديد. كان الأمر ثقيلًا على نفسه هذه المرة أكثر من قبل، ففي البداية غامر مُفعماً برغبة قوية في نفص يأس حمله بين ذراعيه، فكان يتساقط منه

مع كل خطوة يخطوها في الاتجاه الآخر. عاد خفيفاً، لكنه الآن بدأ يشعر بوطأة الثقل تعود ثانية.

زاد الثقل مع مقاومة المسؤولين لـ "ظاهرة التسلسل"، كما يطلقون عليها من كل منابرهم. كانوا قد تحكموا بالفعل منذ زمن بالحدود البحرية وأغلقوا الشواطئ أمام الناس تماماً، حتى أنهم منعوهم في بعض المناطق من رؤية البحر نفسه. فكانوا يجلسون بجانب الجدران المرتفعة يستمعون لصوت الأمواج. وأصبحوا خبراء على دراية بأحوال البحر من صوته فحسب. وتطور الأمر معهم، فاستعاضوا بأساء أصواته عن رؤية أمواجه ومشاهدة الزبد يجري فوق ساحله. كانوا يخبرون بعضهم بعضاً أن البحر ملتجاً(*) اليوم، أو قد تسمع أحدهم يقول بلا اكتراث إن البحر تكوس(**) هذا الصباح، أو من المنتظر أن يغطط(***) البحر كثيراً هذا الموسم. يتظاهرون بمعرفتهم الكاملة عن أحواله وتقلباته، ويصحبون الصيادين المحظوظين بامتيازاتهم في جلساتهم، ليؤكدوا لأنفسهم أنهم لم يفُتْهم شيء وأن الجدران لم تنجح في فصلهم عن الحياة.

إغلاق الحدود البحرية لم يكن بصعوبة إغلاق الصحارى بدروبها وممراتها وجبالها، وإن كان بقي بعض نقاط الفرار القليلة على السواحل، إلا أن نقاط

(*) اضطراب.

(**) جعل أعلاه أسفله.

(***) علت أمواجه.

الهروب في الصحراء ستكون أكثر، خصوصاً بوجود أبناء القبائل القديمة الذين ما زالوا يعرفون أسرارها جيداً. لكن للمسؤولين هنا دوماً حلوّاً وضوابط غير مطروقة، كمفاجآت حياتية تصدمك بوجهك.

كل ما كان عليهم هو إبقاء كل من هو على هذه الأرض بالداخل. لذلك كانت خطة حقول السافانا والغابات الكثيفة خطة صالحة ومطروحة بقوة على موائدهم المستديرة. من يصدق نزع حقول وأشجار وحيوانات وحياة كاملة من مكانها لغرسها في مكان آخر بعيد، كشريط حدودي عميق لمنع التسلل وتعقيده. بدا الأمر جنوباً كاملاً متوافقاً بلا ريب مع رداءة كل شيء هنا. وبدأ الحديث عن غابة لم توجد بعد، لكن لأن المسؤولين يريدونها بشدة فلا شيء قد يمنعها من الوجود.

لم يكد منصور يبدأ في الإجراءات والترتيبات بالفعل لرحيلهم جميعاً، حتى بدأت الصفقات، وسرعان ما جاءت حقول السافانا واستقرت بموطنها الجديد. تابع منصور وأخواه كل مستجد، كان يبصق التراب ويبشر الأمر مع المهريين. عرف أن الفخ نُصب بإحكام حوله، وأنه وقع بالفعل منذ أن فكر في عودته. لم يواسه تسلل الكثيرين بعد نجاحه، أو انضمام آخرين للزحام أمام بيته ما بين مستحٍ و صفيق، يسألون عن كيفية الرحيل معه.

وبذلك بدؤوا يدفعونه رويداً رويداً ليكون وكيلهم أمام المهريين، والمتحدث باسمهم، والباحث عن حلول لعبور حقول السافانا والنجاة

من حيواناتها المفترسة. لم يظن منصور أن موت أبيه قد يخفي له حياة كهذه، لكنه فكّر أنه في النهاية مضطر إلى خوض كل تلك المشقة لإنقاذ نفسه وأخويه قبل كل شيء.

قدّم المهرّب حلاً لم يبدُ مقنعاً لأحد، لكنه سمعه من أحد صيادي السنوريات، عرضه على منصور وقال إنه ليس أمامه طريق آخر. فأعلن منصور بعد مشاورات ومشادات أنه مستعد ليكون أول المُجَرَّبين في مقابل أن يعبر أخواه الحقول دون مقابل. بصق المهرّب ومضغ التبغ بأسنانه الأمامية ثم قال:

- فقط إن نجحت في العبور سالمًا.

وافق منصور ومضى لحجته دون كلام، وعندما صعد إليه سامي في المساء حاول مواساته لكنه عبّر عن قلقه من الخسارة. فبصق منصور قائلاً إن الخسارات جميعها بنات زواني.

انتقلوا للبلدة الصغيرة على مشارف الغابات الجديدة، بلدة كانت دوماً مقصداً للمتسللين في لياليهم الأخيرة هنا. انتشروا في فنادقها الفقيرة على دفعات حتى لا يلفتوا الانتباه. كانت المغامرة عظيمة هذه المرة، أعظم من عبور رمال الصحراء الجافة بصحبة البدو الرُحّل، والانعطاف مع جبالها والشرب من آبارها وتجنب الذئاب والثعابين ولهب الشمس.

صمّت فؤاد فضّح رفضه لمغامرة منصور، لكنه لم يحاول إثناءه عنها، لأنه يدرك تمامًا أنه لن يتراجع، كما لم يتراجع من قبل حين فرّ من أبيهما وتركهما حياة بعيدة. قديمًا، حين رحل منصور هكذا، شعر فؤاد باليتم أكثر مما شعر عندما ماتت أمه، وأكثر مما حزن حين زفر أبوه زفرته الأخيرة. لم يكن فؤاد قريبًا من أحد كما كان مع منصور، وكانا معًا حتى وقت متأخر يتسكعان على نواصي القرية، لكنه فوجئ كالجميع بأنها كانت ليلته الأخيرة. شق هذا صدره وزرع داخله حقدًا تجاهه لم يُشف منه قط.

أما سامي فكان حائرًا بين التوجّس والحماس. إنه مثل أخويه لم ير غابة أو حقول سافانا، حتى أنه لا يتذكر تفوهه بكلمة تجمع ما بين حروف السين والفاء والنون من قبل. كما أنه -مثل الجميع كذلك- لم يشاهد أي حيوان مفترس في حياته. لكنه مأخوذ بشجاعة منصور وجرأته. كما رفعه هذا الموضع البطولة في وسط الجميع. إنه أخ لأول المتسللين عبر الصحاري وعبر غابات وحقول لا يعرفون عنها شيئًا. فتأكدت مكانته بين جموع المتسللين المرتقبين، أصبحوا يتركون له مكانًا في جلساتهم ويهتمون بحضوره ويقدمون له الشاي الصحراوي اللذيذ ويصمتون حين يتحدث. كان يتصنّع الحكمة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يحاول أن يكون خفيف الظل، لكنه لم يعرف أبدًا هل يضحكون لأنه مضحك فعلاً أم احترام لمنزلته الجديدة وسطهم فحسب. حاول ألا يهتم لكنه فشل، وأخذ يتقلب في

فراشه طويلاً متسائلاً إذا كان اليوم قال نكته بذكاء أم أنه أخفق وبدا كأحمق، مجرد أخ أحمق للبطل الحقيقي.

كان النهار ما زال باكراً حين وصل الصيادون. انقلبت البلدة أمام جيفة أسد هائل الحجم، كان محملاً على سيارة مكشوفة من سياراتهم. عرف منصور ما عليه فعله، وهو ارتداء جلد الأسد بعد سلخه فوق جسده، وحشر رأسه داخل دماغ الحيوان، سيُنزلونه على حدود حقول السافانا ويتركونه ليواجه مصيره. ومن هناك ينطلق عابراً الحقول، ماشياً على أربع لمدة يومين، وإذا حالفه الحظ قد يتمكن من الإسراع ويصل في يوم ونصف فقط. كان عليه الدخول بالجلد طازجاً قبل تعفُّنه وجفافه، لتظل رائحة الحيوان فيه ويضلل الحيوانات الأخرى.

وقف فؤاد وسامي في مقدمة الجمع يودعانه، بينما رمقهما منصور من دماغ الأسد بنظرة غامضة، وتمتم "اعبرا في أثري".

أشاح فؤاد بنظره نحو الأفق ولم يرد سامي. كان منصور ضحكاً لكنه بدا هزياً داخل هيئة الأسد العملاق. مشى على أربع متوجهاً للسيارة، والسائق خلف عجلة القيادة يشير إليه بالإسراع، فقفز داخل صالون السيارة الخلفي، وابتعدا وزوبعة ترابية تلاحقهما.

وسط مساحة هائلة من سهول السافانا، تمطعت اللبؤات بدلال وأشباهها

تمرح حولها. بينما استرخت الأسود على ظهورها. الأشجار قليلة حولها لكنها تفي بالغرض، يقف فوقها بعض النسور وحداءات. وفي الأفق ترمزم الحمير الوحشية بجانب الجاموس البري.

لا تبتعد الحيوانات عن تلك المساحة، لأن لا حياة لها خارجها. فكلما توجهت شمالاً أو جنوباً أو شرقاً أو غرباً، وكلما ابتعدت أكثر، لا تجد سوى رمال صحراوية جافة. فكانت السافانا كواحة مفترسة وسط قحط.

تقدمت لبؤة وردية الأنف زمرتها نحو بركة الماء، وانهالت تشرب بحرص خوفاً من التماسيح. في الجوار، على مقربة منها بعدة أمتار، يسير منصور مترنحاً، ولبدته منغوشة حول رأسه. نظرت إليه اللبؤات بأنصاف أعين، لكنها لم تتخذ ضده أي إجراء، بدت لـ منصور أنها تميل للاسترخاء في هذا الصباح المشمس. فأسرع من خطواته مهتدياً بالشمس كما فعل كثيراً كلما ضل طريقه في مكان ما. كان يعرف أماكن الآبار جيداً، يذهب إليها مسترشداً بالنجوم، كما تعلم من البدو الذين قابلهم في رحلاته. لكنه تمكن من تقسيم ما معه من ماء وطعام ليكفيه لثلاثة أيام تحسباً لأي تأخير في تلك الغابة. كان في حوزته ملابس كذلك، ربطها حول بطنه داخل كيس بلاستيكي حتى لا تتسخ بدماء الحيوان ولا تتأثر برائحته النتنة. كما علّق سكيناً صغيراً وآخر أكبر حجماً بجانب مؤنته حول وسطه أيضاً. وبقي خفيفاً رغم ذلك يدهئه الجلد الساخن ويأخذ بتحذيرات أحد الصيادين،

لا ينظر في عين حيوان ولا يسرع الخطى. أمامه كانت الحقول منبسطة، ذهبية تتمايل الشمس فوقها. لم تكن تختلف كثيرًا عن رمال الصحراء اللامعة، لكن هنا الخطر متخفيًا بين الأعشاب الطويلة. فالصحاري رغم هيبتها لم تكن مخيفة لمنصور كما هي السافانا.

في البلدة، لم ينم أحد بعد رحيل منصور. ولم يتبق لمنصور سامي أظافر أخرى ليضمها. يفرش الجميع المقاهي القليلة المتناثرة في الأرجاء بانتظار رسالة تؤكد عبوره الحدود سالمًا ونجاح خطته. كان رجال المهرب وراء الحدود مترقبين وصوله إليهم كذلك.

مريومان حتى تلقوا رسالة بأنهم لم يعثروا على منصور بعد، ولا وجود لأثره على الحدود. اختفى ولم يصل ولم يعد وأسف عليه الجميع. تذكره سامي في حديثهما الأخير معًا، وكيف بدا له يائسًا يبصق ويسب كثيرًا رغم حماسه لإنقاذ الجميع. لطالما رغب سامي بشدة في رؤيته محتدًا كفعل أخير يعيد إليه آدميته التي سلبها منه شعوره بأنه مميز. لكن حين قرر منصور العبور داخل جلد الأسد، عرف سامي أنه تجاوز حد البطولة منذ زمن، أدرك أنه حين تسلل وتمكّن من إخراج رأسه من الوحل، وجد هناك ما قد لا يجده سامي أبدًا. بعد أيام قليلة من الحزن والتأرجح بين الخيبات أخبر سامي المهرب أنه سيذهب وراء منصور بصحبة فؤاد، لعلها يتمكن من إنقاذه.

لم يصدق فؤاد أن اختفاء منصور مجرد حادث، لم يصدق بطولاته منذ البداية. اعترض على مبادرة سامي وقال إنه لن يذهب في أثر أحد. بهت سامي لبعض الوقت، وفكر فيما مضى إليه فؤاد، وقد بدا له مقنعاً بعض الشيء. لكنه سأله ماذا سنفعل إن لم نعبر وراءه؟

انتظرا الصيادين أياماً متتالية، وإمارات الإخفاق تخنق عنقيهما. وصل بعضهم أخيراً وبصحبتهم جيفة ببر ضخمة. كانوا سعداء بصيدهم وتباهوا به. فالنمور نادرة في الأساس ولا يجدها الصيادون بسهولة. قال المهرب إن البربر مناسب أكثر لفؤاد لطوله الفارع وضخامة هيئته، ثم أرسل في طلبه. وانتظر سامي وصول الصيادين الآخرين بجيفة أخرى ليعبر السافانا مع أخيه.

قبل سلخ جلد البربر، ذهب فؤاد مع مجموعة من الشباب للمذبح السري ليراه. وقف صامتاً أمام جلال الجسد المسجى. الجميع يهللون في المذبح، يشدون أطرافه المحتفظة بسخونتها ويجذبون الرأس من الأذن. أحدهم شدّ شعر شاربه بقوة ليحتفظ بشعرة منه.

إلا فؤاد، باقٍ على صمته. كان ينظر ملياً إلى الجلد المخطط الجميل للغاية. اقترب أخيراً منه وتصدر المشهد. تحسس برفق الشعر القصير البرتقالي ولمس ببطن يده رأسه الكبير. حيوان مكتمل البهاء لم ير في مثله اكتمالاً وتاماً. صعد فوق طاولة السلخ بروية ثم احتضنه وبكى بشدة. توقفت

الصيحات. وحاول الجزار إبعاده، لكنه تمالك نفسه ورفض الابتعاد.

التفت باحثاً عن المهرّب الذي كان ينظر إليه بتهكُّم، دفع له ما تمّ الاتفاق عليه من أجل اصطياد الحيوان، ثم طلب المساعدة لنقله للخارج. استأجر سيارة وابتعد عن البلدة. قيل إنه لم يعبر حقول السافانا أبداً، قيل إنه ابتاع كوخاً صغيراً على حدود البلدة وتمكن بمساعدة البدو من تخنيط النمر ويعيش برفقته وحيداً مهووساً بكماله. لم يهتم سامي بالبحث عنه. كان يرغب في أن يبقى أخاً للبطل، وبطلاً تالياً له، وفؤاد كان ليدمر كل هذا، لذلك تجاهل حكايته وأعلن في مجلسهم الليلي أن فؤاد حر لكنه سيكمل مشوار منصور للنهاية.

ازداد عدد المهرّبين وصياديهم ومتسلليهم. وتزايدت قوائم الانتظار، وأصبح لدى كل مهرّب بطل كمنصور يُحكى عنه، لكنه بقي ألمعهم كأب روحي نموذجي. كان أكثرهم حظاً هو من يحصل على جلد اللبؤة، إنها ملكة بحق لا يعترضها أحد إطلاقاً إلا في مواسم التزاوج، يكون العبور بجلدها أكثر صعوبة، لأن المتسلل يكون مُعرّضاً لاقتراب الأسود منه لإغرائه. أما من لم يدفع جيوب المهرّبين بهاله، ارتعدت مفاصله وهو يتسلل في جلد فهد أو قطط برية ضخمة.

عادت الظاهرة تنتشر من جديد. وعادت اجتماعات القواد بالحجرات المغلقة. قالوا:

"نقضي على حقول السافانا ونُصَفِّي كل الحيوانات".

وقالوا:

"نعيدها لبلدانها الأصلية ونستعيد المال لفشل المشروع".

لكن في النهاية أعلنوا أنهم سيشترون جلود الحيوانات من الصيادين مباشرة بأموال طائلة، أكثر مما يدفع المتسلل للحصول عليه.

اجتمع المهربون مع الصيادين ليناقدشوا القرارات الجديدة. لم يتوصلوا لحلول قاطعة. فالصيادون تُجَار كذلك، وجيوبهم متمردة دومًا، فبدأت حرب الصحاري. قطع المهربون طرق الصيادين، سرقوا الجيفات وهربوها لمذابح سرية ليحصلوا على الجلود ويرتديها المتسللون الذين لا يضمنون سلامة العبور، وزادهم غضب الصيادين الذين لم يترددوا في اصطيادهم وتركهم في السافانا فريسة للحيوانات الحقيقية.

كان على سامي التسلل وسط تلك الحرب الدائرة. تعاظم التوجس بداخله، كان قلقًا من فكرة اصطياده فيصبح مصدرًا للتهكم. لم يسخروا من منصور لأن للأبطال دائمًا ممحاة كبيرة في عقول محبيهم. أما هو، سامي، القصير، كثير الكلام والنكات، الذي فشلت مبادرته وهرب منه فؤاد وتدخل المسؤولون ليقضوا عليها، لم يكن في مأمن من التهكم، وليس بعيدًا جدًّا عن النسيان. في ذلك الوقت حقد على منصور الذي عبر كأسد

وسط ظروف موأية؁ جعلت من سيرته سيرة شعبية تلوكلها الألسن في كل مكان؁ حتى إن فُقد أو هرب مثلما اعتقد أخوه؁ إلا أنه بقي. لكنه أيضًا فكر وجذبته الفكرة؁ إذا تمكّن من العبور في ظل هذه الحرب الدائرة فسيكون ألمع من أخيه وأشجع منه. كان يفكر في كل شيء عدا أنه يود أن يُنسى تمامًا الآن.

أثناء ترده زاد سعر جلد الحيوان؁ حتى أن جلود القطط البرية أصبحت تفوق سعر جلد الببر من قبل. لكن لم يمتنع المتسللون عن دفع الأموال على أمل إيجاد فرصة للعبور؁ ولم يتوقف المهربون عن قطع طرق الصيادين؁ ولم يكف المسؤولون عن عرض المزيد من أجل القضاء على الظاهرة.

حتى أصبحت المضاربات علانية. يبيع الصيادون الجلود للأعلى سعرًا أيًا كانت الجهة. احتدم السباق. ودفع المهرب سامي دفعًا لحقول السافانا داخل جلد قطة برية؁ بعد أن كانا اتفقا على عبوره داخل جلد لبؤة. قال له المهرب "إن لم تعبر الآن ربما لن تعبر أبدًا".

"كل هذه الأسود والنمور والفهود؁ كل تلك اللبؤات؁ وأتسلل في النهاية داخل قطة مذعورة؟! لكان حمارًا وحشيًا أكرم من هذا!"

لكنه انصاع كرهاً وأخذ بالنصيحة.

وسط تلك الهيستيريا الجماعية زاد عدد المتسللين الحمقى؁ وأصبح من

المألوف رؤية أسد يسير على قائميه الخلفيين فقط ولبدته منفوشة في الهواء. بعضهم طاردهم الأسود واللبؤات ولم ينجوا من مخلبهم.

لم يتابع أحد خبر سامي الذي سار تائهاً في السافانا في كل الاتجاهات وترك جلد القطة ثم توجه إلى سفح جبل كان يسد الأفق أمامه، وبقي عالقاً هناك. لم يعرف أن المصارف وضعت بنداً لأسعار جلود الحيوانات بجانب أسعار العملات الأجنبية، وأن المستثمرين ضاربوا في البورصة القومية، كان سعر جلد اللبؤة هو الأعلى، يليها جلد الببر، فتسابق الصيادون يتجولون شرقاً وغرباً للإيقاع بفرائسهم الأعلى سعراً.

لكنه كان يراقب حقول السافانا من مكمنه في كهف في بطن الجبل. كانت الحمير الوحشية ما تزال ترمزم باطمئنان بجانب الجاموس البري. لا يهددها خطر سوى احتمال وجود تماسيح لم ترها بعد في البرك الصغيرة. لأن اللبؤات لم تعد تتمطع بدلال فوق العشب ولم يعد للأشبال وجود.

آخر أيام الخطيئة

1

اعتاد سعيد مراقبة المنتظرين من موقعه بالطابور حيث يتسلى بتخمين الحجرة المناسبة لكل منهم. أحدهم استلم نتيجته متوجساً ووقف في انتظار دخوله للطريقة الطويلة. كانت الوجوه مكفهرة من حوله، باعثة على التجهم، لكنه لم يكن خائفاً. شعر بأنه سيتمكن من التخفف من الثقل حين يسلم أوراقه.

في وسط القاعة وقف رئيس المراقبين، يتفحص الجميع ويتأكد من سير العمل كما ينبغي. تتراص المقاعد بشكل دائري، دائرة داخل الأخرى. حيث الجميع في مواجهة الجميع. لا خصوصية لأحد هنا، فلا قيمة للتواري عن الأعين المحدقة. في الحقيقة، لا قيمة للتحديق كذلك.

وصل سعيد أخيراً للشباك الصغير، قدم أوراقه في صمت ثم توجه لأقرب مقعد في انتظار النتيجة. طال ترقبه، حتى أن معظم من حوله توجهوا للحجرات الخاصة بهم، وانتهى بعضهم من العقاب ومضوا في طريقهم. ظل وجه سعيد هادئاً، وجه ملائكي رجولي لا يخفي وراءه شيئاً. كان يعرف أنه سينتظر أكثر من الجميع في هذه المرة، فقرار الصفح لن يكون أبداً بسهولة الإدانة.

الردهة الدائرية الضخمة شبه خالية، فلقد انتهت طوابير اليوم. طلاؤها الأبيض ناصع كأنه مطلي لتوه. قديماً كان عليهم قضاء الكثير من الوقت في انتظار النتيجة. لكن النظام استطاع اختصار ساعات الانتظار الطويلة، واعتمد صيغة جديدة لاستثمارات صُمِّمت لتسهيل الأمر على المحكِّمين، فيسهل الفرز والعقاب. ليس عليهم سوى ملء الاستثمارات بصدق، والإشارة للخطأ المقترف بعلامة صح ثم تقديمها.

في أقصى يسار الردهة طرقة جانبية عريضة يغلقها مصراعاً باب كبير. يتفرع منها عدة طرقات تؤدي إلى حجرات العقاب. يعرف سعيد المكان جيداً، كل من في البلدة يعرفونه، وتقريباً تلقوا عقابهم في كل الحجرات الموجودة بالتناوب. يأتون كل عام واستماراتهم ملأى باعترافاتهم بخطأهم. بعد توالي السنوات وخبرة النظام بخطاياهم، عدّلوا الاستثمارات لتشمل كل ما يمكن تخيله من أخطاء.

طالت جلسة سعيد في الردهة، حتى أنه أوشك أن يكون الوحيد من منتظري العقاب. فمال برأسه لأعلى متأملاً السقف. كان زاحراً بنقوش الطاهرين الذين نجوا بعد الموت لنقاء نفوسهم. يطيطون في سماء بلا أجنحة، والابتسامات الهائلة تزين شفاهم. حجرات العقاب مرسومة بعناية على الحواف، وأبوابها مفتوحة. ورغم أنه تأمل الرسم هذا عشرات المرات، لكنه لأول مرة يدرك أن تلك الأبواب هي مخارج مضمونة لنعيم الطائرين.

حاول تخيل مصيره بعد الموت وهو من قرر ألا يعبر للفردوس من تلك الأبواب. فكر أنه من الممكن فتح باب جديد غير مرتبط بالألم والعقاب، باب خاص به ولمن يتحمل من بعده. فكر كثيراً فيمن سبقوه إلى هناك دون عقاب مسبق، الناس من الأرض الثانية مثلاً، أمه التي فوّت إليهم، كيف تلقت عقابها بأثر رجعي؟ ما مدى ألمها وندمها؟ أطرق برأسه، فكلما تذكر أمه يصمت ويلهي ذاكرته بمكان آخر.

انتبه لخروج رجل ضخّم من باب أقصى يمين الردهة، يحمل بيده أوراقاً كثيرة. توجه مباشرة نحو رئيس المراقبين وهمس في أذنه بشيء ما يبدو أنه خاص بسعيد، لأن كليهما نظر إليه، ثم انسحبا إلى الداخل معاً.

خرج الرجل الضخم ثانية، وتوجه نحو سعيد الذي دوى قلبه بعنف، كأن الرجل يخطو خطواته الثقيلة من داخله. نهض معه وسار بمحاذاته حريصاً على ألا يسبقه، حتى لا تحذله قدماه ويهوى وراءه. وصلاً أخيراً إلى

مكتب التحقيقات. حجرة مربعة، يتوسطها مكتب وراءه ثلاثة مُحَكِّمين، أحدهم أشقر وشعره الذهبي طويل خلف كتفيه.

انطلقت نظراتهم كالسهام، حتى أنه مال برأسه للأمام، ورفع يداً على عينيه كأنه يحمي نفسه. أصبحت أفكاره مبعثرة وشعر أنه منقاد لمصير لا يريده. لكن فات وقت التراجع الآن.

أجلسوه على كرسي صغير مقابل لهم. كانت أقدامهم عارية بلا أحذية أو جوارب. تساءل سعيد إلى أي مدى يمكن لرجال حفاة أن يكونوا مؤذيين، لم يساعده هذا في زعزعة القلق أو تنظيم اهتزازات قلبه. تبادلوا النظرات، وأعطتهم نظرة سعيد المنخفضة نحو أقدامهم انطباعاً بأنه خانع لهم. سأله الأشقر:

- أنت "سعيد ساكن"؟

أوماً سعيد برأسه. حدث الأشقر من بجانبه بصوت منخفض ثم سأله إن كان قدم أوراقه لهذا العام؟ وإن كان صادقاً بما جاء به؟

تنحى المحقق الآخر، ورشف رشفة صغيرة من كوب ماء أمامه. كانوا يصمتون قليلاً بين السؤال والآخر، كأنهم يحاولون إضفاء الهيبة على مجلسهم المصغر. كانوا حائرين، لا يعلمون ما عليهم فعله بسعيد. فلم يسبق لأحد في تاريخ النظام أن قدم استثمارته فارغة بلا أي خطأ محتمل. لكنهم استمروا بالتحقيق، فقال المحقق الثاني:

- هل تمزح معنا يا سعيد؟

حاول سعيد ألا يبدو مرتعبًا، لكن خانه صوته وخرج مذعورًا:

- بالطبع لا. أنا لا أحب المزاح.

- إذا تسخر منا!

- ولماذا أفعل هذا؟! أنا رجل هادئ تمامًا يا سيدي ولا أحب المشكلات.

لم يكن انهيار سعيد متوقعًا حتى لنفسه. لم يختبر هشاشته من قبل. فقد ارتجفت يده حين بدؤوا في توجيه الاتهامات. اضطربت أنفاسه وبهت سلامه النفسي، حتى أنه شعر بسقوط ملامح وجهه، تداخلت حواسه ثم تداخلت تمامًا. لم يبق له شيء، لوهلة أحس أنه لم يعد قادرًا على الرؤية، وأن محجري عينيه مجوفان عاريان يمكنهم سكب سائل لزج بهما إمعانًا في تعذيبه. تبعته الهلاوس واستمرت حتى أفاق في حجرة مظلمة، لا يعرف كم مضى فيها. خنّ أنهم اصطحبوه إليها وتركوه محمومًا بمخاوفه التي كادت تأكله. أعادوه إلى حجرة التحقيقات بعدما فاق تمامًا. واستأنف المحققان:

- لقد فحصنا أوراقك يا سعيد.. رجعنا لبرج مراقبتك وتأكدنا مما دونته.

نهض الأشقر من كرسيه وحام حوله، لم يستطع سعيد النظر لقدميه العاريتين لشدة قربيه منه. مال المحقق عليه حتى كاد يلصق فمه بوجه سعيد الذي اعتقد أنه سيلثمه أو يعضه، فابتعد بحركة غريزية. دخل سؤال المحقق لعقله مباشرة بصوت عميق:

- لم لا تعيش حياة عادية كالآخرين يا سعيد؟

حاول سعيد الابتعاد برأسه قليلاً، لم يستطع، فتحدث بهمس غير مقصود:

- أنا أعيش بالفعل يا سيدي.

- وكيف ذلك؟

- هكذا، أنفَس وأتناول طعامي وشرابي وأذهب لعملي.

اعتدل الأشقر وابتعد بخطوات صغيرة عنه، كانت في يده أوراق، خَمَّن سعيد أنها أوراقه، وودّ لو ينتزعها منه ويأكلها لينتهي الأمر. لكن لم يمهل المحقق واستأنف ملوِّحاً بها:

- انظر يا سعيد، أوراقك فارغة تماماً. لم تملأ أياً من الخانات المطلوبة، كيف لك أن تحيا دون خطايا؟

- لأنني لم أفعل أياً منها.

- إذاً ماذا فعلت؟ أنت لا تعيش ما دمت لا تمارس الحياة. من أجل هذا تأتي إلى هنا، تقدم أوراق خطاياك ونحن نظهرك منها. نطبق القانون ونعاقبك، فتخرج وكأنك ولدت من جديد. هل تعلم يا سعيد أنه لا يوجد في القانون ما ينص على ترك الخانات دون ملئها؟

ارتبك سعيد، فرك كفيه وقال خائفاً:

- معذرة يا سيدي، لكن لا يوجد في القانون عقوبة لمن قدم أوراقه دون خطايا كذلك.

تبع جملة الأخيرة صمت. كانت حالة سعيد هي الأولى منذ عقود طويلة. يُقال إن رجلاً واحداً قدم أوراقه فارغة من قبل، ولا أحد يعرف مصيره، لم يكتب أي شيء عنه في السجلات بعد فعلته هذه. وهذا يعني أن ما جرى له ظلّ غير معلوم، وبالتأكيد أشدّ ألماً من أن يُذكر في أوراق يمكن للجميع الاطلاع عليها.

لم يعرف سعيد عن هذا الرجل شيئاً ولم يحاول البحث. كل ما رغبه هو مُضيّ يوم عبوره لعامة الجديد، دون حجرات مظلمة أو وخزات مؤلمة، ففضى عامه الأخير يتجنب الخطايا. لم يقف أمام مرآته عارياً، حتى أنه لم يطل النظر إلى وجهه بها، لم يحدث أي امرأة ولم يسمح لنفسه بالاستمئاء قط. لم يشاهد أي مشهد جنسي، وتوقف عن التفوه بنكات خارجة. لم يسافر بصحبة الأصدقاء، ولا سهر ليلاً على المقاهي المحيطة. كان ملتزماً لأقصى

حد، لا يتكلم إلا قليلاً ولا يأكل سوى بصمت متوارياً عن الأعين. حتى أنه لم يشتر ملابس جديدة. تكشف تماماً. لم يصرخ، لم يشتك، لم يضحك إلا لماماً، رغم كل ذلك لم يأمن العقاب.

قاده الحراس لحجرة دائرية صغيرة، جدرانها كالحة دون دهان. كانت بلا نوافذ، فقط طاقة صغيرة في أعلى الجدار تسمح بقليل من الهواء. حتى الباب لم يكن محددًا بإطار يميزه من الداخل. حين هبط الليل، أضأوا لمبة سهاري صفراء تعكس جسده كخيالات مخيفة على الجدران من حوله.

تخيل سعيد أن الرجل الذي ترك استماراته خالية منذ عقود قضى ليلته الأولى هنا أيضًا. حاول محاكاة مخاوفه وتساؤلاته حول مصيره. كان مرتعبًا، يفتش في نفسه عن حماسه التي قادته هناك. حضرت أمه برأسه مرة أخرى. إنه ولدها الوحيد، فكيف يمكنه إنقاذ نفسه من هذا الفخ؟ إنه فخ الجينات الذي جعله متمردًا دون قصد. لكنها أقوى، فكر أنها بالطبع لا بد أن تكون الأقوى، ومن سواها يحمل الجينات الأصلية لكسر الأنظمة؟!

اضطجع ساندًا رأسه بيديه وحقن باللمبة الصفراء في السقف. كانت مثل اللمبات الصغيرة المتسربة من شبك شديد الصغر، ما زال يذكره من طفولته. كانت أمه جالسة بجواره في المطبخ تعدّ الأطعمة. وضوء مهتز يبدو كشموس ضئيلة لا تقوى على اجتياح الظلام الكثيف لمناور المطابخ الساكنة في الليل. اعتادت الغناء أثناء ممارستها عملاً يدوياً، لكنها في تلك

الليلة تحديداً لم تدندن. لم ينس إطلاقاً ملامحها الغليظة التي تأملها خلسة وهو مستند بيده على إطار الشباك الصغير.

كان الهواء منعشاً، يخبطه في وجهه. فانحنى للأمام كثيراً حتى تدلى نصفه العلوي خارج الشباك، وأرجح ذراعيه بحرية كأنهما منفصلان عن جسده. لم يشعر بنفسه إلا عندما صفعته أمه على مؤخرته بقوة، وتعالى زعيقها به. في ذلك اليوم جمع جسده تحت غطاء سريره، كانت أسنانه تصطك بقوة، فاقترب من روحه أكثر ونام.

لم تكن حادة كما يتذكرها، لكنها كانت صارمة. اقتربت أكثر فأكثر من العبوس الكامل قبل رحيلها. لم تمت، لم تصله أي برقية تفيد أنها قد ماتت، وإن كان يرجح ذلك. أو لا يعرف، ربما يتمنى موتها، لكنه لا يعترف لنفسه بهذا، يخفي الأمر بداخله ويواريه عن أفكاره. لكنه في هذا المحبس لم يعد قادراً على الادّعاء.

في يوم طويل وجدها قد رحلت، هكذا، أفاق على سريريه ولم يجدها. بهتت صورة والده وهو يهرول من حجرة لأخرى لاقتفاء أثرها حتى اختفت. طارده في أحلامه دوماً، جالسة في ردهة منزلهم الصغيرة، أمام باب حجراته الأبيض الذي كان يتخذه مرسماً له. يراها شفافة في صباح رائق، وقدمها ملفوفتان بدخان رقيق، تطلب منه الرسم بطول الباب. ثم تراقبه بفخر ويدها إبرة كروشيه حمراء دقيقة وبعض الخيوط. وعند

انتهائه، تنهض، وتُقبّله قبلة واحدة فحسب، ثم تفتح الباب وتخرج منه. في كل مرة ينوي ألا ينهي الرسم أبداً حتى تبقى جالسة أمامه للأبد.

وحيد وسط سجنه، تحت اللمة الصفراء الواهنة، ارتعد جسده. لطالما رغب في الابتعاد عن مصير أمه، ليجد نفسه في النهاية يسير على خطاها، لكن بخطوات مذعورة أقل جرأة وأكثر إذلالاً. حتى أنه لا يتذكر إن كان يشبهها في ملامحها أم لا. ولأول مرة يقر أنه حقاً يتمنى عودتها واصطحابه معها. ثم تعالى نحيبه.

2

قبل شروق شمس اليوم الأخير لأمين، اصطحبه الحراس لغرفة صغيرة ملحقة بالسجن. لم يكن أمين يحب إطلاق لفظة "سجن" على المكان الذي مضى به عدة أسابيع بعد القبض عليه، لكنه لم يجد وصفاً آخر له. سأل أحد الحراس في مرة عن اسم المكان، فأجابه إنه "الفرجة". فسخر أمين منه كثيراً على مدى أيام.

جراتهم في الالتفاف حول أصل الشيء هو ما أثار احتقاره نحوهم دوماً. تلك البذرة القذرة التي يغرسونها في النفوس عن العقل المضلل الذي لا يمكنه الرؤية بنفسه. فيصبح وضع إنسان ما في حجرة كالحالة لفترة طويلة ليس سجنًا، بل هو إفراجة لعقل لن يُنقَّى سوى بغلقه. بقدر ما كره أمين

تسمية ما حل به بـ"الاحتجاز"، إلا أنه لم يترك فرصة تمر دون إثارة ضيقهم وترديد كلمة "سجن" على مسمع ومرأى من الجميع.

في الحجرة الصغيرة، كان المحكّمون جالسين كعادتهم خلف الطاولة، وأقدامهم دون أحذية. ظل أمين يشتت عقله بعيداً عن القلق من نتائج التحقيقات بفكرة أنهم قد ولدوا هكذا. جاءت الأمهات المنذورات ليكنّ والدات للمحكّمين، وفتحن أرجلهن وأسقطن أجتتهن فوق تلك الكراسي. وترعرعوا فوقها، محتجزين داخل منظومتهم وداخل أحكامهم، يحتسون إكسير الشباب الذي يستخرجونه من نضح المرتعبين بحجرات العقاب، ويخترعون الخطيئة.

بصوت آلي رنان، ألقى أحدهم خطاباً أجوف لم يتحرك له أمين. كان فقط يأمل معرفة حكمهم دون إذعان لهم. وللهرب من فخ الاصطناع، شرد ببصره قليلاً عنهم ليواري توجّسه.

- لقد فرغت من حياتك هنا يا أمين.

قال المحكم بعد انتهاء الخطاب. فتهكم أمين:

- إذا انتهت الإفراجة أخيراً؟

- بالفعل لقد انتهت، أنت الآن لم تعد في عداد الحياة الآدمية. لقد جرّدناك من ربتك العليا.

صمت أمين قليلاً وفكر أن الرتبة التالية لن تكون سيئة للغاية.

مع شروق شمس اليوم التالي قيّدوه وغمّوا عينيه. أركبوه سيارة وساروا في طرق مستوية في البداية، ثم بدأت الطرق تنعطف بعضها على بعض ولم تعد الأرض بنفس الاستواء. حين وصلوا أخيراً بعد ساعات طويلة قضاهم أمين ما بين غفوات وإفاقات قصيرة، خلعوا الغمامة عن عينيه، نظر للشمس وعرف أنهم اتجهوا جنوباً. كانوا أمام غابة صلعاء تقريباً، شجرها قصير وأوراقها قليلة، أسفلها الأغصان المتغضنة متشابكة وحادة.

اقرب منه رجل ضخّم وخلع عنه ملابسه بالكامل، حتى حذاءه الذي حاول أمين التمسك به، خلعه من قدميه. كان المحكم المصاحب له يراقبه من السيارة.

يتدرج الظلام أسفل الأشجار المتقاربة، يكسره أشعة شمس تمكنت من النفاذ هنا أو هناك. كل ما يجول في عقل أمين هو الظلام الفعلي الذي سيهبط بعد قليل. دار حول نفسه مستكشفاً المكان، وبقدم حذرة سار نحو سفح جبل أسود عالٍ يلامس السحاب، يبدو من وراء الأشجار كقيء سماوي. كل ما يأمله هو إيجاد شق جبلي صغير دون ثعابين يضمه، إلى أن يتمكن من التفكير كحيوان ينتمي إلى غابة.



ضيق جداً الأمل الذي عاش به سعيد في منفاه. حين رحلوا بالسيارة وتركوه عارياً على أطراف الغابة، لعن كل شيء. وما لبث أن هدا حتى استكشف المكان حوله، واستطاع تسلق شجرة كثيفة الغصون، وقضى ليلته الأولى آرقاً فوقها.

لم يأمل في الكثير أثناء رحلة بحثه عن مكان آمن من الحيوانات يخبئ داخله. لم يكن متأكداً إن كان للحيوانات المفترسة وجود بالفعل أم لا. لكنه بقي خائفاً يتلفت حوله باستمرار. تغذى على أوراق الشجر واستطاع صنع واقٍ من الأوراق الجافة ليحمي قدميه اللتين تقرحتا من الجروح. لم ير سوى حيوانات صغيرة كالأرانب والسناجب والفئران، وحيوانات أخرى لم يعرف لها اسماً لكنها لم تهدده. وعلى الأشجار بعض الطيور والبوم والثعابين الصغيرة التي تهرب بسرعة حين يقترب منها. طمأنه ذلك قليلاً وإن ظل حذراً. بعد عدة أيام، تمكن من إيجاد بركة ماء صغيرة، فنهل منها وصورة التماسيح لا تفارقه.

لجأ إلى سفح الجبل في النهاية، باحثاً عن مخرج للمأزقه. كان يلقي باللوم على نفسه في كل التفاتة، حتى ضاقت أنفاسه وكاد يوقفها. تسلق الجبل قليلاً من أقل زواياه انحداراً، وقرح جسده تنغزه. تراءى له فراشه الدافئ والمصباح الأخضر الصغير بجانبه الذي كان يسهر عليه متأملاً فراغ الحجرة، كانت مغامرة كهذه تبدو أبعد كثيراً كثيراً عن حياته في ذلك الوقت. أثناء

صعوده وجد منبسّطاً صغيراً كدرجة سلم، تقف فوقه أرانب جبلية محدقة به. ثم جرت من أمامه وصعدت منحدرًا صغيرًا، فصعد وراءها. كانت ممتلئة بسعادة وذيوها الصغيرة أثارت شهيته، فأسرع على أمل اصطيد أحدها. مضى في أثرها حتى وصل لمدخل كهف، اضطره للانحناء ليرى ما بداخله.

كان كهفًا صغيرًا، سقفه عالٍ في بطن الجبل، لم يكن ليتمكن من رؤيته بمفرده من الخارج لولا الأرانب التي فرت إليه. حين قرر دخوله بعد قليل من التردد اكتشف أن مدخله عالٍ عن أرضه قليلًا، فكان عليه القفز مسافة قدّرها بمترين. الهبوط لمكان آمن لم يكن فكرته عن الأمان، كيف يكون النزول للظلام مهربًا من المجهول؟ لم تكن فكرة مجدية، وكاد أن يستدير ليعود للسّهل أمام الجبل. لكنه كان قد قضى أيامًا كثيرة بالعراء وفلت الرعب من عقاله مرارًا. إنها حياته الآن وعليه الاختيار ما بين الأكثر رعبًا والأقل بدرجات. حسم أمره وجلس على حافة المدخل والصخور الصغيرة المدببة تنغز مؤخرته العارية. تحسس بأطراف أصابع قدميه المكان أسفلته وانزلق بحرص. لم يكن منحدرًا أو بعيدًا عن الأرض كما توقع.

وقف بداخله يتأمل المكان، كان المدخل كنافذة عالية سمحت للضوء بالتسلل للدخل. وحتى اعتادت عيناه على الإضاءة الخافتة لضوء المغيب، كان قد تأكد تمامًا أن هناك من سكن هذا الكهف قبله، وأنه لم يكن ساكنًا

عابراً. لا بد أنه قضى الكثير هنا، وإلا كيف تسنى له أن ينحت ذلك الكرسي الصغير داخل صخور الجبل؟ وذلك المتكأ البدائي المفروش بجلد حيوانات صغيرة متراسة بعناية صانعة فراشاً صغيراً، يبدو أنه كان يستريح فوقه. جلس عليه قليلاً قبل أن يسري خدر هادئ بجسده جعله يستلقي مطمئناً، وفروة أرنب بيضاء ناعمة مستقرة أسفل قدميه، داعبها مرة ثم استسلم وأطبق جفنيه.

في الصباح التالي، أيقظته الشمس التي تعامدت مباشرة على وجهه في بداية يومها. كان الكهف كله منيراً تماماً. وقف في المنتصف محاولاً ترتيب صلوات لم يقتنع بها مؤخراً. لم تكن تبدي نفعاً من قبل، لكنها الآن مستحقة.

وجد أن المكان متسع، به بعض أدوات الصيد المصنوعة من الحجارة والأخشاب، وبعض الفراء الصغير الذي يصلح لأن يكون جوارب. في أحد الأركان آثار نار كانت مشتعلة يوماً ما. بالتأكيد شوى فوقها الطعام من سكن المكان من قبل. كانت الأرانب تمرح بجانبه دون خوف ولم يستطع تفسير ذلك.

وحين رفع عينيه لأعلى، وجد نقوشاً وكلاماً ورسومات على الجدران، بخطوط متعرجة لكنها واضحة. وجملة مكتوبة بجانب المدخل "أنا الإنسان الأول ربّ الكهف". فعرف سعيد أنه كان إنساناً وحيداً تماماً، ربما لم يخرج

من كهفه قط سوى لإحضار الماء وجلب الأخشاب للتدفئة والطهي.
لم يمضِ الكثير حتى اكتشف الكهف بأكمله. كان آمناً له، فهدأت
مخاوفه وفرك جبهته مشحوناً بمشاعر مرتبكة. مهنته فادحة، كلما تشتت
عقله بالسير فوق الأغصان المتكسرة والتيه حول الجبل، وشعر بالإذلال
أثناء المضي وراء حيوان ليصطاده، أو الانكفاء على وجهه ليشرب شربة ماء
من بركة راكدة، تضاعل جسده أمام تلك المهانة. ظل يحلم أنه يتقزّم حتى
يصل إلى حجم عقلة الإصبع ويختبئ أسفل أوراق الشجر ويأكل الديدان.
في الكهف لسعته عبرات ساخنة بعينه أحرقت زوايا العين الداخلية ولم
تسقط سوى بعد فركهما.

نهض كحيوان جريح ليبدأ مهمته اليومية المقدسة، البحث عن الطعام.
لو أن له أمنية واحدة فحسب في هذه الدنيا الجديدة، فإنه يأمل الامتلاء حد
الشبع للأبد، لا يجوع ثانية. أمسك أرنباً كان مجاوراً له، تحسسه وتساءل
إن كان تناول إفطاره. احتار قليلاً وهو يبادل النظر، فكر أن هذا الأرنب
الذي على وشك الذبح الآن أسعد منه حالاً لأنه لم يُطرد من غابته ويتظاهر
بأنه كائن آخر. ذبحه أخيراً بعد سأمه من التداعي. ثم بدأ يعلم نفسه
كيف يشعل نيراناً، واستخدم الأدوات الحادة التي وجدها ضمن أدوات
الصيد. شعر أنه ممتن تماماً للإنسان الأول هذا، وتمنى بشدة أن يكون على
قيد الحياة، ربما يصطاد هنا أو هناك وسيعود في أي وقت للكهف. وكلما

وجد أداة تساعد في حياته الجديدة هذه، ازداد امتناناً وقال في نفسه "إن عاد سأكون خادماً وتابعاً له".

مضت أسابيع ولم ير سعيد أي بشري. كان يدرك أنه لم يعد إنساناً بحسب قرار المحكمين، لكنه أيضاً ليس حيواناً بقرار حياته الجديدة. كان قد ملّ من لحوم الأرانب ولم يعرف كيف يصطاد أي كائن آخر. كما أنه لم ير أي حيوان آخر يمكن التهامه، وسرح بفكره في لحم الغزال الذي طالما وّد تذوقه، لكن أين هذا الغزال هنا؟ ورغم رغبته الشديدة في إيجاد طعام جديد والبقاء حيّاً لكنه لم يتعد عن الكهف إلا مسافة صغيرة نحو بركة الماء.

قضى وقته بالكهف يقرأ ما كتبه الإنسان الأول، ويتأمل الرسومات المنحوتة. كان أكثر رسم مكرر لإنسان يطير بأجنحة وراء ظهره، ذكره هذا بالرسومات في سقف ردهة العبور. بدا له إنساناً حائراً لا يجد مهبطاً له. بحث عن رسم لأبواب مفتوحة حوله، فوجد أبواباً موصدة. أما الكتابات فكانت كمذكرات، لكنها غير مُفصّلة. فهم سعيد أن الكتابة كانت أصعب من الرسومات لصلاية الصخور، لذلك كانت أقل وغير معبرة. فقط مجرد تسجيل لبعض أيامه وكيف استخرج بعض الدهانات من الثعابين ليشفي جروحهم. كان سعيد مأخوذاً بالإنسان الأول، يحاول تخيله، وطفقت فكرة برأسه أنه هذا هو الرجل الذي سبقه في ترك استثماراته فارغة. شفق حين وصل لذلك الاستنتاج، ودار حول نفسه عدة دورات غير مصدق

ما ذهب إليه. لقد تشابكت مصائرها وتقابلا عبر الزمان في مكان واحد، كأنه فعل كل هذا ليناوله لـ سعيد كاملاً، كتر حبيب وإيمان به. كان يسعى للخلود عبر تسليم رايته لمن يأتي بعده، ورسوماته وكلماته تنم عن ذلك. أنارت الفكرة عقله وبدأ ينظر حوله من جديد وكأنه يرى كل شيء لأول مرة. تأمل رسوماته أياماً طويلة وأدرك أنه ندم على ما خطا إليه. لقد كانت خطوطه مهزومة وحائرة، تصويره محلقاً دائماً ولا يحط في مكان قط.

نسي سعيد في خضم أفكاره المتخبطة في بعض الأحيان نحت التقويم على الصخر، فتوقف تماماً. أكثر ما افتقده هو التحدث مع شخص ما، مشاركته اكتشافاته حول تاريخ من سبق وانحاز لنفسه ضد النظام. ثم أسف للخسارة، فلا فائدة للاكتشافات سوى بنقلها للآخرين. استعاض عن الناس بالأرانب التي كانت دائماً بصحبته، رغم أنه يصطاد منها ويسلخ جلودها ويشويها أمام المتبقي منها، لكنها لم تترك الكهف رغم ذلك، بل ازدادت كلما نقص منها. كان يحدثها ويحكي لها عن حياته في المدينة. واكتشف أنه لم يكن يملك حياة، وأن المحقق الأشقر كان محققاً في بعض ما ذهب إليه. لقد كان خائفاً من العقاب طوال الوقت، يملأ استماراته والذنب يطارده. ثم حين قرر التوقف عن اقتراف أي خطايا، كان شعوراً بالإثم يملؤه كذلك، لكنه اتجه النظام الذي نشأ عليه. فكر أن ذلك الإحساس ولد معه، وازداد حين تركته أمه. ورغب بشدة في العودة ليخطئ من جديد.

إلى أن عشر على أمين. كان يسير في اتجاه بركة الماء، ولحيته طالت لتصل إلى صدره. اعتاد العبث بشعرها الطويل وترديد صلواته طوال الطريق. في البداية لم يصدق أنه سمع صوتاً بشرياً واهناً، وظن أنه خياله النشط. ثم توقف حين سمع تكرار الصوت، نظر حوله بحذر، فوجد جسداً عارياً ملقياً على الأرض.

كان أمين محموراً ملقى على وجهه وعظامه بارزة، حتى يمكنك أن تلتقط ضلعاً من أضلعه وتصوبه نحو طائر فتطعنه. ألجمته المفاجأة، ثبت مكانه ولم يستطع التصرف. لم يتسع أمله قط في الآونة الأخيرة لإيجاد بشري. حمله برفق بين ذراعيه وصعد به بصعوبة حتى وصل للكهف. أجلسه على حافة مدخله ثم هبط للكهف وسحب للداخل. كان أمين واهناً لكنه تمكن من مساعدة نفسه والهبوط سالماً.

داواه سعيد، مسح جسده بزيت نجح في استخراجهِ من جسد عدة ثعابين، كما قرأ على جدران الكهف. وشوى له بعض الأرانب التي التهمها أمين بنهم. ثم صنع له بعض الألبسة من فرائها.

بعد انحسار الحمى، فاق أمين. كان مذهولاً مما مر به. تعارفاً، وتبادلا الحكي والكلام. كان قصيراً، هزيل الجسد، لكنه ملاً مكاناً بالكهف. ف شعر سعيد بأن شريكه الجديد يأخذ مساحته الخاصة التي اعتاد عليها منذ قدومه. لكنه ذكّر نفسه بوحدته القاتلة، وفكر أن يعرض عليه فكرة الاستقلال

بكهف خاص به، وأن يتعاوننا كجارين في كل شيء.

كان أمين معتاد الفرار والمكوث لفترات طويلة بمفرده، كما كان يفعل قبل القبض عليه. حكى أمين أنه لم يقدم استماراته منذ عامين ولم ينضم للأرض الثانية كذلك. هكذا ببساطة، قرر تجاهل النظام. وقضى معظم الوقت هاربًا متنقلًا من مكان لآخر حتى سأم الفرار وعاد لمنزله، وهناك وشى به أحد وأمسك به. سألته سعيد في ظهيرة أحد الأيام إن كان يشعر بالندم. فاندesh أمين من سؤاله وتساءل عن سببه. فقال سعيد لأنك تخلت عن النظام فهز صاحبه رأسه نفيا.

كانا يشويان اللحم الأبيض لأرنب ضخم، فقلب أمين الوجبة فوق النار ووضع:

- في يوم ما بعيد، كنت جالسًا أتأمل ظلاي على الأرض، أقيس حجم ظلي مقارنة بحجم جسدي الفعلي. ولوهلة تخيلت أني لست الأصل، وأن الظل ليس انعكاسًا لي. الأصل كان الضوء من حولي. أنا لست موجودًا بالفعل، وكما يتلاشى الظل بزوال الضوء يمكنني كذلك التلاشي. يومها قررت التوقف عن ملء الاستمارات. فكرت أن لو كان لا بد لي الاختفاء والموت، فليكن الأمر بعيدًا عن تلك التفاهة التي نخترعها بأنفسنا ومشاعرنا فوق خانات العقاب. ثم نبتذل إنسانيتنا في حجرات الخطأ ونطلق عليه التطهر.

فقال سعيد متسائلاً:

- ولكن ألم تبتذل إنسانيتك الآن وقد جردت من ربتك العليا؟

- هم من فعلوا، لكنني ما زلت إنساناً. هل تصدق أنك لم تعد كذلك؟

فكر سعيد كثيراً. كيف استطاع الحياة عاملاً كاملاً دون أي خطأ وكأنه لم يعيش. لقد جرد نفسه من رتبته العليا قبل أن يفعلوها بزمناً. تذكر مراراً كلام أمين حول حريته في الخطأ كالإنسان الأول، لكنه يرى أنه لم يكن إلا مقيداً، لقد ندم بالضرورة لكنه فقط لم يجد طريقاً للعودة.

غضب سعيد من المناقشة واعتبرها خطراً على إيمانه الذي كونه منذ قدومه للغابة. انفعّل ولكنه لم يجد ما يقوله، فتسلق المدخل وخرج من الكهف بأكمله وهو يتلو صلواته وأدعيته. شعر أن ما قاله أمين ما هو إلا إهانة للإنسان الأول. تداعى لذهنه الأب الأكبر حين ترجّى الإله أن يكون له صحبة، فجاءت السيدة لتدمر كل شيء وتطرده من الجنة. إنه لم يتمنّ صحبة أمين ليأتي ويزرع إيمانه بكلمات خاطئة.

سار للبركة واغتسل، بينما الأفكار تجيء وتروح برأسه لا تهدأ. كان يفكر في حكمة الإله الذي أرسل له صحبة كهذه. أيريد له أن يُعاقب بعد الموت؟ لكن لماذا الآن بعد أن بدأ يؤمن بالعقاب الحياتي الذي حرص

النظام عليه وغذاه ليكتمل هكذا؟ حتمًا هناك حكمة وراء ذلك، ولا بد من الوصول إليها.

حين عاد تصنّع الهدوء وقرر تجاهل أمين. لم يعد يريد معه في الكهف. في الليل زارته بعض الأحلام، اعتبرها رؤية يسترشد بها، وقضى نهاره يصلي، ثم طفقت بذهنه فكرة مخيفة، تساءل بينه وبين نفسه، أيكون مفتاح الجنة هو الخطيئة الإنسانية المتكررة؟ وتأكد أن إرسال الإله أمين له وراءه رسالة، كما كانت السيدة هي رسالة للأب الأكبر.

نظر لأمين الذي كان يجمع الأغصان بالسهل عند قدمي الجبل. والغابات ممتدة على مدى بصره. كان ما زال هزياً يسهل الانتصار عليه بسهولة. ازدادت عيناه اتساعاً ولمعت. تحسس شريحته الإلكترونية بذراعه وتمنى ألا تكون معطلة. بالتأكيد سيأتون إذا أخطأ ليروا إن كان مستعداً للانضمام إليهم من جديد. تمنى أن يكون تخمينه في محله. وبدأ يخطط لما لمعت عيناه من أجله.

في الليل، بعد أن سقط أمين في النوم، أخرج سعيد عضوه المنكمش، عبث به حتى أيقظه، ثم اعتلى أمين الذي كان غارقاً في النوم بهدوء. قيد حركته بجسده واستطاع رفع فراء الأرنب الهزيل الذي يغطيه ووجهه من الخلف. اغتصبه عدة مرات، ولم يتمكن أمين من النهوض من أسفله لضخامة جسد سعيد بالنسبة إلى جسده.

حين وقف أمام المحكمين مرة أخرى، بعد أن عادوا واصطحبوه لاستجوابه بشأن خطيئته هذه، قال بثقة "لقد رجعت بشرياً ثانية وأريد العودة"

سأله أحد المحكمين وهو ينظر إليه باهتمام:

- ولماذا اخترت تلك الخطيئة الشنعاء لتعود؟

فأجاب سعيد بلا تردد:

- لأنها فعل آدمي.

وبعد مداولات، جاء الحكم النهائي بعودة سعيد، ورجوع رتبته العليا له ثانية. وتصدر الصحف والإعلام كأول رجل يُطرد ويعود، كالرجل الأكثر إيماناً من بين الجميع. أما أمين فلم يُعرَف عنه أي شيء بعد ما فعله به سعيد.

3

كانت تدنو من النهاية بخطى مرتعشة. تنهي يومها كل مساء قائلة بهمس لنفسها "من منا لن يموت؟! " ثم تنام وتأمل ألا تصحو. حين عاشت أكثر مما توقعت، قررت كتابة الخطاب الذي لطالما أرجأته. فكرت أن حياتها التي طالت هي علامة، ولا بد من المضي ورائها. في الوقت نفسه علمت بخبر سعيد. فجلبت قلمًا وأوراقًا وجلست على طاولتها تكتب:

"إلى ولدي سعيد:

كلما لمحت طفلًا باكيًا تحسست معدتي. ألم ما خبطني ولم يفارقني منذ رحيلي. في كل مرة يضرب مكانًا مختلفًا. أتحسس مكان الألم، أربت عليه

بحنو فيرق لوجعي ويصمت. لكني لا أستطيع تدليله حين يبكي طفل. أقف عاجزة أمامه، لا أفهم. وأود احتضانه بقوة حتى يتمكن من الاختباء بداخلي ثانية، فيعود كأن لم يكن ولن يشم الهواء ولن ينتظر سائل الحياة ليرويه.

لم أستطع إرجاعك لرحمي حتى ننسى عناء التجربة، فابتعدت صامته. ظننت ف البداية أن وجودك ضروري لوجودي أنا، لكنني أدركت أنك لست امتدادًا لي، إنما أنا الامتداد. أنت الأصل وأنا مجرد هامش. لذلك كان عليّ تركك لأجذك بطريقتي الخاصة.

دعني أحكي لك، أكلمك حتى لا تتوه كثيرًا أكثر مما فعلت. كانت الخطيئة الأولى التي عوقبت بسببها عدة سنوات متتالية هي عزوفي عن الزواج. كنت أكتفي بإمتاع نفسي في بعض الأحيان ولا أكثر لرجل في حياتي. لا تحجل يا ولدي، فإنك الآن رجل تدرك كيف تسير الأمور. ولقد بلغت من العمر الكثير الذي يجعلني لا أخشى الاعتراف.

كانت فعلتي هذه من ضمن الخطايا الكبرى، وكان عليهم إخماد ثورتني، فتطلب منهم ختاني عدة مرات بحجرة عمليات القطع. هناك يقطعون قطعة من جسدي، أمل أنك لم تمر قط بتلك الحجرة المضيئة كحفرة تطل على الشمس نفسها.

في المرة الأخيرة، ذهبت مرحة بالعقاب، قدمت جسدي فوق طاولتهم وتمددت بأريحية وأنا أعرض أعضائي الهائلة أمامهم، وددت أن أقول كلما قطعوا جزءاً "صرت أكثر أنوثة"، لكنهم لم يتوقفوا لحظة أمام جلال المشهد، ومارسوا عملهم بآلية. وقتها أدركت أنهم مقتطفوا الأرواح، أجساد مجوفة سائرة فقط في الاتجاهات المحددة لها.

في العام التالي سجل جهاز مراقبتي أنني حاولت الانتحار. لم يكن الأمر كذلك، لكنني تركتهم يفعلون ما يحلو لهم. لم تكن محاولة انتحار، إنها محاولة فاشلة للغاية للتخلص من جهاز مراقبتي.

ما زلت أتذكر ذلك اليوم. كنت في السابعة من عمري. لم يكن مسموحاً بالتحدث مع الأطفال من دون السابعة عن أجهزة المراقبة، ويعد ذلك خطأ يستوجب المساءلة. كنت أرثدي فستاني الأزرق القصير وأهوى في شرفة جدتي. نادتنني أمي وقبّلتنني وطلبت مني النزول لأبي لأمر مهم. لمحت ضحكة ابنة خالتي الكبرى وأمها تشدها من أذنها لتدخل إحدى الحجرات الداخلية. لم أفهم حينها، لكنني شعرت أن أمراً جليلاً في طريقه للحدوث. كان الجميع مبتسمين ويتمنون لي السلامة، عبرت وسطهم ونزلت السلام بهدوء كأميرة صغيرة في طريقها للتويع.

كان السلام الملكي من فيلمي المفضل يرن في أذني، فمشيت في الشارع باتجاه أبي بخطوات ملكية ثقيلة. كان صباحاً حاراً وأبي يرتدي قميصاً

بلا أكمام على ناصية الشارع. مسك يدي وسار بي نحو السيارة دون كلام، وهناك داخل مقر العبور، ساعدوني في العبور من عالم الطفولة للعالم الإنساني الأكثر طهرًا، زرعوا جهاز مراقبتي بذراعي أعلى الكوع مباشرة. وظلت الحُمى مصاحبة لي عدة أيام، حتى أفقت وبدأ تسجيل خطاياي يعمل بدقة.

كنت أكذب داخل عقلي أولاً، أحبك الكذبة تمامًا ثم أتفوّه بها أمام الجميع بأنفاس هادئة، فلا يسجلها الجهاز. نجحت في الإفلات مرات كثيرة ولم أعاقب. كان عقلي هو الصديق الذي يقف خلفي. أحببت اللعبة وكرهتها. عشرات المرات أتأرجح بداخلي ما بين شك ويقين، وحب وكره، ومزاج متقلب يرغب في التحدي.

بدأ الأمر بأكمله منذ عشرات السنين، يقال إنهم مائة ويزيدون تسعًا. نجحت ثورة ما حينها، يمجّدونها كثيرًا بكتب التاريخ. كان عزيز من فجرها، وأنشأ مجلسًا ثوريًا ليقبض به على جمرات انتصاره.

اعتقلت قوات عزيز حينها رجالاً لم يتمكنوا من الفرار. رجال أصبحوا من الماضي، لكن محاسبتهم ضرورة لأمن الثورة والثوار. في البداية فرض عليهم حظر الخروج من بيوتهم أو الاتصال والتواصل مع أيّ كان خارج البلدة، لكن قبضته لم تكن من حديد كما كان يأمل، فاستمرت المناوشات والتسريبات للخارج، فأعدم أحدهم وأبقى على الآخرين لحين اتخاذ قرار ما بشأنهم.

كانت الحياة وقتذاك ممكنة، كما أخبرني والدي الذي أخبره والده عن كل شيء، أشياء. حينها تنفس الجميع كما لم يفعلوا من قبل. وتقدم كبير العلماء للمجلس الثوري باختراع يزيد من قبضتهم حول رجال الماضي. فبدأ كل شيء تحت السيطرة. كان الاختراع هو تلك الشريحة الذكية، نسيج رقيق ذو شرايين تمكنت من التأقلم مع أجسادنا، وكما تعلم لها ذاكرة طويلة المدى تسجل كل شيء قد يفعله الرجل في يومه. كانت ثورة تكنولوجية موازية لثورة عزيز الكبرى. ثورات تتبعها ثورات، مد بلا جزر اجتاحت العالم. وازداد الهمس باسم عزيز بالأرجاء.

أين قد يذهب الرجل من نفسه؟ قد تصيبه لوثة عقلية وهو يحاول إخفاء فعل ما عن نفسه. واتسعت رقعة الأنسجة الرقيقة لتشمل المعارضين ومؤيديهم وأحبائهم وعائلاتهم وجيرانهم ونحن، جميعنا. امتدت المنظومة وطالت الجميع.

هنا، في عالمنا الصغير، على بعض النواصي وفوق بعض الجدران، قد تجد نحتاً أو رسماً لرجل مجهول بلا وجه، يرتدي بدلة عسكرية ممزقة، ويده اليمنى مبتورة وقدمه بلا أصابع، إنه رمز لذلك الإنسان المتمرد الأول الذي رفض النظام ونزل لأرض ثانية ثم صعد لسمااء أخرى. نلقي عليه التحية ونمُرُّ.

كل هذا ملأ رؤوسنا صداً. صرنا ندخر الخطايا بين جلودنا ولا نعرف

أين نصر فيها. كنت أتحبط ذعرًا في طابور تقديم الأوراق. كنت أبكي لأن البكاء غير مسموح به، أفعل كل ما هو ممنوع. أملأ الاستمارات بالخطايا التي حتى لم أفعلها، وأتركهم يتأكدون من جهاز مراقبتي، لأنه لا يمكن لطفلة فعل كل هذا في عام واحد.

لكنني رضخت في النهاية وتزوجت. ألمني جسدي المقتطع أكثر من جسدي الباقي. كل قطعة ترحل عني تزورني بأحلامي، أراها تبحث عني، تائهة وسط أجساد كثر كقطعة بازل وحيدة بلا قيمة.

تزوجت أول طارق لبابي. نسيت شكله الآن لكنني لم أنس أنفاسه الثقيلة فوق جسدي، وأصابعه الرفيعة الطويلة التي ترحف كثعابين بين طيأتي. لقد أصبحت متأكدة أنني سأغدو جوفاء إذا سمحت لهم بلمسي مرة أخرى، ولم أكن أعرف أنني سأكون موحشة على أي حال.

ثم كنت أنت، مبتهج الوجه. قدرت لك الفرحة، هكذا رأيت مصيرك حين رأيتك لأول مرة، فكنت سعيدًا. حملتك بين يدي ولم أتركك قط، كنت أنت المفضل لي. أجلسك بجانبني وأغني لك. كنا اثنين وحيدين منبوذين، أعاقب أنا كل عام على تفضيلي لك عن الجميع، وتعاقب أنت من الجميع لكونك المفضل لدي. كنا كقوسي دائرة ندور معًا ولا نكترث.

عرفت مؤخرًا أنك قد تمردت أخيرًا. تركك لأوراقك خالية لم يكن التمرد الكافي بالنسبة إليّ لكنه خطوة صحيحة. ما زلت أنتظرك في الأرض

الثانية لترى قصص تمرد وفرار كثيرة. إنها ليست أرضاً ثانية كما يطلقون عليها بمقر العبور، إنها الأرض البكر، الأولى. إنها الأرض الحرة التي تليق بك متمرداً اختار مصيره. فالتمرد العادي يحيا هنا حراً فما بالك بتمرد سعيد مثلك يمكنه أن يطير!

كان رحيلي لك أنت. حين لمحت جسدك يتأرجح من الشباك كفتت عن الغناء، لماذا أردت الموت يا بني؟ سهرت ليلتي أسمع نسيجك أسفل الأغصنة. لم أصدق أنني كدت أفقدك في لحظات، لولا أنني كنت قريبة فجذبتك بشدة إليّ. ليلتها قررت الرحيل والانضمام للأرض الثانية وإبطال جهاز مراقبتي بالطرق غير الشرعية. كنت أعرف دوماً أن إحباطاتي ستنتقل إليك وتصيبك، لكنني رغبت بشدة ألا أصدق ذلك. رغبت في ألا تلحظ ذبولي وأنا أقدم روحي إليهم عاماً بعد عام، لم يتبق لك شيء. فذهبت لئلا تدبل معي، وانتظرت تمردك لأني على يقين أنك ورثت كل شيء مني، وأنا امتدادك بالحياة.

لا تفعل أبداً ما يفعله الآخرون. لا ترضخ كما فعلت. أراك في أحلامي تفتح باباً أبيض مليئاً برسوماتك الطفولية الملونة، تقف أمامه وتشير إليّ فلا آتي. تحزن ثم تمضي، تعبره بعيداً. أنا الآن على الناحية المقابلة من الباب، أنتظر يا صغيري، وأتساءل إلى أي مدى يمكنك الغفران؟".

انتهت. وبحثت عن طريق لإرسال كلماتها. كانت تعرف أن سعيد طُرد

بالغابة المهجورة منذ زمن قديم. طلبت من كل شخص قابلته إيجاد سبيل لإرسال الخطاب، طمأنها الجميع، لكن بدوا وكأنهم يُسكّنون مخاوفها فحسب. وبأنفاس قليلة وضعت الورقة أسفل وسادتها. لم تعرف أبداً بأمر اغتصاب سعيد لأمين، وانتقل الخطاب من يد لأخرى لسنوات كثيرة بعدها.

4

حين وصل صلاح مع حسام للخرائب ليلاً لم تكن كما توقع، ولم يكن الليل كما الليل. شعر بأنه في قلب الحياة نفسها، فالخيم متراسة أمامه والمتحركون بكل اتجاه، على عكس المدينة الكثيبة التي تركها لتوه. عالماً كاملاً لم يكن ليراه في حياته أو حتى في أكثر أحلامه شططاً. لم يحدث أبداً أن رأى تجمعات كبيرة كهذه سوى بمقر العبور حين يطول الطابور. كما أنه لا يذكر سماعه لضحكات عالية بالشارع، بالكاد يتسم البعض من حين لآخر إذا حدث ما يستدعي ذلك، وتنتهي الابتسامة سريعاً قبل ظهور الأسنان الأمامية. أما تلك الحياة التي -للمصادفة- أُقيمت وسط خرائب، والتي بناها شعور زائف كالشك، فإنهم يستحقونها، لأن حتى

الرجل المتيقن الثابت كصخرة جبل شديد الصلابة، عليه التشكك من وقت لآخر. كما كان سكنهم بالخيم بالأساس مناسباً تماماً لهم كقوم رُحَّل بين عالمين صامتين وبينهما هرج، هذا الهرج الرحب الذي لا يسعه كلمة صغيرة كـ"بَيْن".

بخيمة حسام، كان شركاء باقون بالمكان لا يغادرونه، على عكس حسام الذي كان يرهقه الأمل، فينحسر مبتعداً ثم يعود مرة أخرى، لينضم لجوقة الباحثين عن الأرض الثانية، يرى الخرائط ويستمع للاقتراحات ويقدم نفسه كمستكشف مع البعثات التي تمشط الصحراء من حولهم. لكنهم في كل مرة لم يجدوا سوى المزيد والمزيد من تابعي النظام.

بالنهار تجلّت الصورة أمام صلاح أكثر. الخيم أكثر مما ظن والحياة مفتوحة على كل الاحتمالات. منذ أن أصبح ذلك الخطاب التعيس بيده بعد رحيل أبيه، تخيل أنه ذلك الفارس الذي وقع عليه الاختيار لمواصلة ما بدأه جده. لكنه بعدما افترش سريره ليلاً وقبل نعاسه، واجه نفسه بما أنكره دوماً، اعترف أن هذا الخطاب هو ذريعتة الجيدة للفرار، وأنه قبله لم يكن سوى جبان. كما مال إلى فكرة أن أباه كان جباناً أيضاً خصوصاً وهو يعي جيداً ما حدث لأبيه قبله، لكنه حاول تجاهل الفكرة، وركنها جانباً. ثم استسلم للنوم، وحياته الفعلية أمامه تبدأ أخيراً بعيداً عن استمارات الخطايا وحجرات العقاب.

انعطفت الحياة بأرض العبور منعطفًا شديدًا بعد عودة سعيد من منفاه. لقبوه حينها بالأشد إيمانًا من الجميع، ففرض إيمانه بقدر ترحابهم به. وأصبح الأرنب رمزًا للإله ولمحبتة، مكَّنه سعيد تلك المكانة لصحبته بمنفاه، فأصبح بشارة سماوية، اللهَّ وخلد المتنرد الأول صاحب الكهف كما لم يحدث من قبل. أصبح من الطبيعي رؤية تمثال لأرنب بعين حمراء نارية في حجرات العقاب، ينظر إليهم بغضب. قدموا له القرابين بالمعابد ليرضى، حتى أن كريمة زوجة صلاح قدمت الكثير ليبقى صلاح برفقتها وينسى أمر الخطاب.

لم يكن أمام صلاح سوى حسام صديقه كثير الاختفاء. عندما استقصى وراءه عرف صلاح أنه يفر للبحث عن الأرض الثانية. ما لم يعرفه هو كيف يعطل برج مراقبته ويهرب ويعود دون القبض عليه. ضحك حسام وقال: "لا نعطله أبدًا لكننا نكتم كل شيء عن أنفسنا".

فهم صلاح ما يشير إليه بعدما قرأ خطاب الأم عدة مرات. تلك المكابدة اللثيمة التي يمر بها حاملو أبراج المراقبة، تلك المعاناة في ملاقات حجرات العقاب وطوابير الاستثمارات والجلوس في مواجهة النفس للاعتراف بكل هفوة، كل خطية، كل زلة هو هوة آدمية بلا قرار.

أخبره صلاح عن الخطاب، فقرأه حسام أكثر من مرة. لم يُعقَّب، إنما أخبره أن يستعد باكراً. وسأله كيف وصل جدك أمين لهذا الخطاب؟

قلب صلاح شفتيه في حيرة وهز رأسه متعجبا. فلم يعرف أحد أبداً سره.

في الصباح، خرجا متسللين ورأساهما مختبآن داخل غطائي رأس صوفيين. هربا داخل مقطورة تنقل الحبوب والخضراوات ونزلا في طريق جانبي مهجور. وصلا الخرائب سيراً على أقدامهما بعد مسيرة نهار كامل.

لم يكن للمجموعات بالخرائب قائد، إنهم بائسون فروا من مآسيهم الخاصة ومن الوحزات والآلام بحثاً عن جدوى. إنما رجل واحد يدعى جابر، هو أقدمهم في السعي وراء ذلك المجهول الذي لم يثبت قط وجوده بشكل حقيقي ولملموس. كان بمثابة أب روحي لهم.

ربما كان خطاب الأم هو الوثيقة الوحيدة التي بها اعتراف خطي يدل على وجود ما يسمى بالأرض الثانية بالفعل. لا يعرف أحد مكانها أو كيف تبدو، غير أن بها جدراناً فوقها رسومات، وبشوارعها نواصي منتصب بها منحوتات لرجل يلقون عليه التحية ويمرون، هكذا كفقااعات صابون مطمئنة ممتنة لحياتها الصغيرة الملونة.

اصطحبه حسام لخيمة جابر، كان شديد البدانة ولا يبرح مكانه منذ سنوات. تفحص صلاح قليلاً ثم دعاه للجلوس. لم يتبادلا الكثير من الحديث، استمع لخبر الخطاب وضمّ شفتيه ثم تساءل عن ما يريده الآن

فقال صلاح بترؤ أنه لا يريد شيئاً لنفسه، فقط يريد أن يعلم الناس أن ما أرادوه دومًا موجود بالفعل.

صمت قليلًا، ولاك بشفتيه شيئًا ما غامضًا، اعتقد صلاح أنه اجتزّه كجمل من حديثه الأمامية. كان يفكر بعمق ووجهه مهموم كمن لا يجد مخرجًا من داخل حفرة. ثم مال برأسه قليلًا نحو صلاح بالقدر الذي سمحت به رقبته السمينة، وقال:

- أتعرف أننا لم نعد نبحث عن الأرض الثانية منذ زمن؟

- لكن ما أعرفه أن حسام يمشط المكان من حول...

قاطععه جابر:

- حسام لا يفعل شيئًا جادًا، ولم يعد أحد ينتظر أي شيء.

- إذا لماذا بقيتم هنا؟

- لأننا قطعنا دربًا طويلاً نحو الحرية. النظام اليوم مُترهل، يعتمد على قرايين خراء الأرانب، ولم يعد متعصبًا بشأن استثمارات العقاب.

- لكن أبراج المراقبة ما تزال في أجسادكم!

شرد جابر ببصره بعيدًا وكف عن الحديث. كان جالسًا أسفل طاقة عريضة في قماش خيمته تسربت منها رقعة صغيرة من الشمس على نصف

جسده المقابل لها. حين أشاح بوجهه عن صلاح، غمرته الشمس بالكامل، فظهرت تجاعيده وأسنانه الرمادية النخرة المختبئة داخل فمه، المتفتح المتطابق حد الالتصاق، لكنه فرغه وتمتم حين همَّ صلاح بالرحيل أن لا رجاء من الأمل.

فرغ صبر صلاح وقال محتدًا "لقد اختطف سعيد المرسل جدي وعذبه ليحصل على هذا الخطاب. لا أعلم ما وصل إليك وأنت في خيمتك هذه. لكننا كعائلة نحمل ذلك الإرث الثقيل، وقد قررت أن أظهره أخيرًا للناس من أجل أمين.

وخرج غاضبًا من الخيمة ينوي نشر الخطاب بين مجموعات الخيم. مضى أيامًا يجادل حسام حتى كادت مناقشتها تنقب السماء فوقها، ثم أشاعا خبر الخطاب بين الناس.

مجموعات متصلة على عزلتها، يشيرون للغرب أو للجنوب، ما خلف الغابات، ما خلف الخرائب، ما خلف البحر. اسم "أرض ثانية" ساهم في صورتها المختبئة وراء شيء ما عظيم. اقترح أحدهم أنها أرض "ثانية" أي أنها أسفلهم، طبقة سفلى تحت طبقتهم، واقترح الحفر بعمق مئات الأمتار للبحث. أصبح الخبل على رؤوس البعض والدهشة حلَّت فوق رؤوس الآخرين. يعود بعضهم لأرض العبور ليقدموا استثماراتهم ويتلقوا عقابًا ويقدموا قربانًا للأرنب، لأنهم بحاجة إلى مقدس أمام نظرهم، أو لأنهم

يتجنبون تسجيلهم بقائمة الهارين. كانوا كالحواة، يتمسكون بكل المواقف كي لا يخسروا، يقفزون على حبال هاوية مشدودة ما بين أبواب حجرات العقاب وبوابات الخرائب المحملة بكل متنفس.

لم يقف صلاح لحظة ليفكر فيما فعله خطاب أم سعيد الذي كتبته بأيدي محتضرة، ومضى سعيد آخر أيامه يهلوس بأسئلة عنه. وكأن كل ما لاقاه من منزلة رفيعة لم يكن كافياً ليرقد بهدوء، وأن خطاباً تعيشاً وحيداً من أمه لكان أجدى له. خطاب الموت كما أطلق عليه جابر.

تمادت الجموع في بحثها ولم تخفت الأصوات أمام أي صوت عاقل، وحين قال جابر بأن لا أرض ثانية سوى هنا، طعنه أحدهم طعنة قاتلة في ليلة هادئة. لم يشعر به أحد. وجدوه مقتولاً بعد ظهيرة اليوم التالي من مقتله. ودمه وشحومه وهمومه سائلة بجانبه، وقد نحف جسده كأنه خف تماماً ليساعد الروح في تحليقها.

وتشتوا في كل الاتجاهات، على رأسهم صلاح الذي تبع كل مجموعة لمدة من الزمن. مُتذكراً دوماً جده وظهره المحني في خيبة، ونظره المنخفض وكأنه يبحث عن شيء. أمين الذي ولجه سعيد بالقوة وفراً بالغابة على غير هدى، أمضى أياماً يهذي ويسير بدروب مجهولة، ويحك مؤخرته بالصخور والأغصان والرمال والشمس ليدميها ويظهرها بالدم.

انعطف عدة منعطفات، فوجد كوخاً صغيراً على مشارف إحداثيات

محوه، كوخ من خارج الزمان. طرق بابه والخذلان يتساقط على الخشب غير المطلي. طلت عجوز من خلفه وفتحت بابتسامة هادئة، ظنت أنه ساعي يريد هاجمه حيوان ما، فقدمت كل شيء يمكنها تقديمه، الطعام السائل والصلب والشراب الدافئ والساخن، وطبيبته بأنفاس قليلة ويد مرتعشة. ثم نامت ولم تفق، لم يسعها الوقت لتحكي له عن ولدها الوحيد الذي خلّفته وراءها لتتشابك مع العالم الحر وتحيا من جديد. كان الخطاب بيد أمين حينها، لكنه لم يقطع وعدًا، لذلك لم يخلفه.

انعطف ثانية خارج البيت، سار وفقًا لحده، حتى عاد لكهفه بالغابة، عاريًا إلا من كلمات الأم، وبفمه طعم الحامض الذي ألهب فوهة معدته. قُبِض عليه ثانية بتهمة اللواط. فكان الخطاب هو ما استخدمه ليُغَضِب سعيد ويقلق رسوخ مكانته. لم يصدق سعيد بالبداية، ولم يحضر جلسات محاكمته. لكن حين عرف أن أمين وصف أمه لجميع المُحكّمين الذين جلس أمامهم، ركض حيث كان. لم يجد سعيد الخطاب، ولم يعترف أمين بمكانه مطلقًا رغم كل ما لاقاه. كان نخبًا بعناية أسفل جذور شجرة كبيرة بالغابة. ومضى أمين يحلم بنثر رماده بعد الموت ليخلق كما لم يفعل قط في حياته، لكنهم لم يستطيعوا تنفيذ وصيته، لأن النظام يمنع المحتضر من ترك وصية.

خطاب الموت انتقل من يد ليد، تسلمه يد محتضرة بلغت اليأس ليد على

وشك الرحيل لم يتعبها الأمل بعد. ولم يتبق سوى بعض شرائح إلكترونية
لينة بأذرع الناس بالمدينة، وبقايا خيم متراصة بقلب الحياة، في أرض أُطلق
عليها ضمناً "الأرض الثانية".

المؤلفة في سطور

أميمة صبحي

- كاتبة ومترجمة مصرية.
- مواليد القاهرة، 1984.
- حاصلة على ليسانس الآداب قسم الإعلام من جامعة عين شمس.
- نشرت مقالاتها وترجماتها بالعديد من المجلات والجرائد المصرية والعربية.
- ترجمت كتاب "عقول مريضة" للباحث الهولندي دوي درايسما وصدر عن دار العربي عام 2013، كما ترجمت لنفس الدار رواية "إلينج" للكاتب النرويجي انجفار أمبرشن عام 2016.
- شاركت في سلسلة 3 حودايت للأطفال التابعة للهيئة العامة للكتاب بقصة "الفتاة التي حبست العاصفة" 2017.
- حصلت على المركز الأول في ورشة قصص القاهرة القصيرة التي نظمها معهد جوتة عام 2015 عن قصة "الرأس الذي كُشف غطاؤه". تُرجمت القصة للألمانية وتم مناقشتها في معرض فرانكفورت للكتاب أكتوبر 2015.

البريد الإلكتروني:

omima.sobhy84@gmail.com

